الباب الثانى

الاتجاهات النقدية الحديثة فى علم الاجتماع

الفصـــل السادس : الاطار الفكرى والبنائى للاتجاهات النقدية .

الفصـــل الســـابع : رايت ميلز : الاتجاه النقدى المبكر .

الفصـــل الثـــامن : حركة التجديد والنقد فى علم الاجتماع
الفن جولدنر والنقد السوسيولوجى .

الفصـــل التاســـع : حركة التجديد والنقد فى علم الاجتماع
امتدادات رايت ميلز فى التراث المعاصر .

الفصـــل العـــاشر : البدائـــل النظرية والاحيـــاء الفينومينولوجى

الفصل الحادى عشر : مناقشة ووجهة نظر .

الفصل السادس

الاطار الفكرى والبنائى للاتجاهات النقدية الحديثة فى علم الاجتماع

مقدمـــة :

ذكرت فى مكان سابق أن التحليل سوف لا يقتصر على سرد النظريات او الاتجاهات ، وانما سيمتد الى الأطر البنائية والفكرية التى يكشف عنها الواقع الامبيريقى ، وذلك انطلاقا من مسلمة معرفية مؤداها أن اى ضرب من ضروب التنظير او التفكير ما هو الا انعكاس لواقع بنائى معين بما يغلف هذا الواقع من تيارات أيديولوجية . واذا كانت النظريات التى عرضناها فى القسم الأول من هذا البحث قد عكست واقعا معينا وتيارا ايديولوجيا معينا ، فان الاتجاهـــات النقدية التى تصدت لهذه النظريـــات قد ظهرت كانعكاس لواقع مختلف وتيارات فكرية مختلفة . ولم تظهر هذه الاتجاهات النقدية فى مجتمع مغاير للمجتمع الذى تسود فيه الاتجاهات القديمة المرتبطة بالنظام ، وانما ظهرت داخل المجتمع ذاته . وفى هذه الحالة تثور فى اذهاننا اسئلة كثيرة حول طبيعة القوى والتيارات الفكرية التى افرزت هذه الاتجاهات النقدية . وتقودنا هذه التساؤلات من التساؤل عن طبيعة التغير فى الحياة الاجتماعية ، وما يرتبط بهذه الحياة من أفكار ونظريات .

المحقق ان اى تغير ما هو الا رد فعل للتناقضات التى يكشف عنها الواقع الاجتماعى باستمرار . فالواقع الاجتماعى لا يمكن تصوره على انه واقع مستقر منظم تنظيما ازليا ، فمثل هذا التصور يؤدى بنا الى الوقوع فى تيار النزعة المحافظة المرتبطة بمشكلة النظام فى المجتمع . فالواقع المستقر

لابد أن تجتاحه تيارات وحركات تاريخية جديدة تولد ضروبا من الصراع يعجز الواقع عن استيعابها ، ومن ثم تدخل هذه الظروف الجديدة فى تناقض عميق مـــع الواقـــع القديم ؛ ينتج عنه فى النهاية واقع جديد مغاير يجمع بين خصائص القديم والجديد ماله قدرة على الاستمرار والدخول من جديد فى تناقضات اخرى . اذا كان هذا هو القانون العام لحركة المجتمع وتغيره ، فهل يعنى ذلك أن واقع المجتمع الغربى الذى أفرز النظرية القديمة المرتبطة بالنظام ، والاتجاهات النقدية الثائرة عليه ، قد تغير تغيرا كليا على المستوى البنائى والنظرى بحيث كانت الاتجاهات النقدية هي مركب النقيضين فى العملية الجدلية . ليس هـــذا ما نقصده بطبيعة الحال . فمركب النقيضين لابد أن يكون واقعا مغايرا تماما للواقع القائم ، تفسره نظرية مغايرة للنظرية القائمة . فالواقـــع اننا ما زلنا نعيش فى عملية الجـــدل والتناقض بين البناء القديم والبناء الجديد . فالمجتمعات الغربية ببنائها القديم ونظريتها المحافظة لم تستطع أن تحقق الاستقرار والاستمرار الذى تدعيه ، وتفجرت داخلها صراعات فكرية وبنائية لم تستطع أن تستوعبها أو تشكلها داخل النظم . ولقد شكلت هذه الصراعات البنائية والفكرية بناء جديدا دخل فى عملية جدل وتناقض مـــع البناء القديم . ولا شك أن عملية التناقض لا تكون عملية محددة ، ولكنها سلسلة متصلة الحلقات — متشابكة الحدود والأبعاد — من التغير والتشكل المستمر . فعملية التناقض ما هى الا مجموعة من العمليات الجدلية الفرعية التى تؤدى كل واحدة الى الأخرى وتؤثر فيها وقد تدخل معها فى تناقضات جديدة .

ونحن نقرر هنا هذه الحقيقة لاعتقادنا أن الاتجاهات النقدية الحديثة ليست هى النتاج الكلى للتصادم بين القديم والجيد ، وانمـــا تعد بمثابة نتاج لاحدى العمليات الجدلية الفرعية داخل حركة التناقض الواسعة النطاق التى يخبرها المجتمع الغربى الرأسمالى فى الآونة الأخيرة . فظهور هذه الاتجاهات لم يحل تناقضات المجتمع أو تناقضات النظرية ، بل على العكس من ذلك تماما سوف نجد انها سوف تدخل فى تناقض جديد مع البناء القديم

القادر على الاستمرار والمثابرة ومن ثم تعمق العملية الجدلية الكلية وتثريها وتجعلها تتقدم خطوة نحو حل تناقضاتها الداخلية . كيف يحدث هذا ؟ الأمر يحتاج الى مزيد من التفصيل بطبيعة الحال .

رأينا فى الفصول السابقة كيف اتخذ علم الاجتماع فى المجتمعات الغربية بدءا من كونت وحتى صورته البارسونزية المعاصرة — وجهة معينة ومسارا خاصا هو ذلك المرتبط بالنظام الاجتماعى العام . وقد رأينا أيضا كيف أن هذا المسار الخاص يعكس الواقع الاجتماعى كما يتصوره الراسماليون من أنصار الاتجاه المحافظ . هو اذن مسار متحيز يركز على بعض العوامل (المرتبطة بالنظام) ويحاصر عوامل أخرى (المرتبطة بالصراع) ويتجاوزها عمدا . ومن ثم كان لابد أن تظهر هذه العوامل المحاصرة — من فترة الى أخرى — لتدخل فى تناقض مع النظريات القديمة والواقع الذى تفسره . وكانت هذه الصراعات بمثابة تحديات امبيريقية أمام التراث القديم المرتبط بالنظام خلال التناقض بين هذا التراث القديم وبين التغيرات الجديدة . وسوف نرى من خلال استعراضنا لهذه الاتجاهات أنها بدأت تدخل فى تناقض من نوع جديد مع التراث القديم ، والبناء الاجتماعى القديم ، وذلك على الطريق الطويل لعملية التناقض الواسعة النطاق . وهكذا فقد كان انبثاق الحركة النقدية انبثاقا بنائيا ، أثرتها وشدت من عودها بعض الظروف العامة والخاصة كان أهمها ما يرتبط بالعلم ذاته من تناقض داخلى بين مثالياته وسلوكه الفعلى . ففى الوقت الذى يدعو فيه الى التحرر من القيم ومحاولة تحقيق أكبر قدر من الموضوعية فى سعيه نحو فهم وتفسير سلوك البشر ، يسعى الى الارتباط الوثيق بالسياسة وينحرف بأهدافه الانسانية نحو خدمة أهداف لا انسانية . هذا التناقض الداخلى كان يكسب الحركة المضادة أرضا جديدة فى عملية الصراع بينها وبين التراث القديم ، ومن ثم عضدها وساعد على ظهورها فى وقت مبكر .

وسوف يكون هذا الفصل محاولة للكشف عن هذه الحركة الجدلية

بين التراث القديم والتغيرات البنائية والفكرية التى كونت الأساس التحتى للاتجاهات النقدية . انه محاولة للكشف عن الاطار الفكرى والبنائى للحركة النقدية الجديدة . واذا كنا قد عرضنا فى القسم السابق من البحث التراث القديم وبذلنا محاولة لابراز الاتجاه الخاص الذى سار فيه والظروف البنائية المرتبط به ، يتبقى لنا — اذا أردنا ان نبرز الطرف الآخر فى عملية التناقض — ان نتعرف على التغيرات البنائية والفكرية التى دخلت فى حوار مع هذا التراث القديم ومع الواقع الاجتماعى الذى يفسره ، وأن نتعرف على نوعية الظروف التى ساعدت على تعميق هذا التناقض . ومن هنا فان التحليل سوف يمتد الى مستويين : مستوى بنائى ، ومستوى فكرى ، بحيث نكشف عن التغيرات البنائية وما يرتبط بها من تغيرات وصراعات فكرية كونت فى تلاحمها البناء الجديد الذى دفع بالحركة النقدية الى الظهور . وبالنسبة للصراعات والتغيرات البنائية سوف نتخذ من ظهور الحركات الاجتماعية المرتبطة باليسار الجديد مؤشراً على هذه التغيرات والصراعات ، ونبرز هنا نوعية الممارسة السياسية أو النشاط المعارض الذى يثخر فى صلب البناء ذاته . أما بالنسبة للصراعات والتغيرات الفكرية فسوف نحاول القاء الضوء على الموقف الفكرى والأيديولوجى لهذه الحركات وما ارتبط بها من تيارات فكرية معارضة للتراث الفكرى القديم وساعية نحو هدم النظام القديم وتغييره الى الأفضل . وسوف يقودنا الحديث عن التيارات الفكرية والأيديولوجية الى الحديث عن أزمة العلم فنشير باختصار الى بعض تناقضاته الداخلية التى جعلته يهوى بسرعة امام حركات النقد المتدفقة .

ومن ثم سوف ينقسم هذا الفصل الى العناصر التالية :

أولا : الحركات الاجتماعية : مؤشر الصراع فى الحضارة الغربية .

ثانيا : أزمة المجتمع الرأسمالى : نحو بناء فكرى جديد

ثالثا : من أزمة المجتمع الى أزمة العلم .

اولا : الحركات الاجتماعية : مؤشر الصراع في الحضارة الغربية

سيطرت على المجتمعات الغربية ، والعلوم الاجتماعية فيها في فترة الخمسينيات موجة من الدعة والتفاؤل . واعتقد العلماء ، ورجال السياسة ايضا أن المجتمع قد حل تناقضاته الداخلية . فقد دخل المجتمع الأمريكى فترة ما بعد الحرب وهو يحاول جاهدا أن يصور لنفسه والعالم انه على اعتاب مستقبل مشرق ، ساعد على ذلك ازدياد القوة الأمريكية عالميا وكذلك التراكم التكنولوجى السريع . وعكست هذه الحالة من الازدهار نفسها على العلوم الاجتماعية ، وعلى الممارسة السياسية ، وانبرى العلمـــاء الاجتماعيون ينظرون لهذا الواقع الوهمى ، ويضفون عليه صفات الحقيقة (١) وقد راينا فى القسم السابق من هذا الكتاب كيف بذل بارسونز وتلاميذه جهودا مستميتة لاضفاء طابع النظام على عناصر الواقع الإجتماعى ، بحيث ظهر هذا الواقع فى مخيلته مركبا من مستويات متعددة من التكامل تبدأ بالتكامل بين الدافعية والمعايير وتنتهى بالتكامل الذى تفرضه ميكانيزمات الضبط الاجتماعى ، ولم يكتف المنظرون بهذه الرؤية النظامية ، وانما ذهبوا الى ابعد من ذلك عندما حاولوا أن يصوروا المجتمعات الغربية على أنها قد نفضت ايديها من كل مظاهر الصراع ، خاصة الصراع الأيديولوجى ، وانها تغلبت على كل مشكلاتها الداخلية الأساسية وتمثلت وجهة النظر هذه فيما اطلق عليه نهاية الأيديولوجيا End of Ideology . وقد تمثلت فى هذه الفكرة قمة الدعة والتفاؤل الذى وصل اليه العلماء الغربيون .

ظهرت فكرة نهاية الأيديولوجيا فى منتصف الخمسينيات حيث عقد مؤتمر عن « مستقبل الحرية » (٢) حضره عدد كبير من علماء الاجتماع والسياسة والمشـــتغلون بالسياســـة والمثقفون من مختلف الدول الديمقراطية (من

---

(١) ســـعد الدين ابراهيم عـــلم الاجتمـــاع الأمريكى بين التواطؤ والثورة ، مقال بمجلة **دراسات عربية** ، يولية ١٩٧٣ ، ص ٢٢ — ٢٣.

(٢) عقد هذا المؤتمر فى ميلان Milan بايطاليا عام ١٩٥٥ .

الاشتراكيين والمحافظين على حد سواء) . وقدم ادوارد شيلز لهذا المؤتمر مقالا بعنوان « نهاية الأيديولوجيا) ذهب فيه الى أن الأمور التقليدية التى كانت تفصل بين اليمين واليسار قد تضاءلت الى أدنى حد . فتزايد الرقابة الذى ظهر فى بعض الدول لم يبلغ الحرية الديمقراطية ولم يعد الاشتراكيون ينادون بالاشتراكية بقدر انشغالهم — مثل المحافظين تماما — بخطر الدولة القومية . ومن ثم اختفت الخلافات بين اليمين واليسار او كادت وبدأت تنحصر فى الأمور المتعلقة بملكية الحكومة والتخطيط الاقتصادى (٣) . ولقد طور دانيال بل D. Bell هذه الأفكار — فى كتاب بعنوان « نهاية الأيديولوجيا » ذهب فيه الى أن المجتمع الأمريكى قد تغلب على كل مشكلاته الجوهرية ؛ ولم يعد فى حاجة الى أى ضرب من ضروب الأيديولوجيا فليس هناك من مكان فى المجتمع المعاصر لصراع الأيديولوجيات ، « فالمشكلة التى تواجهنا اليوم فى الداخل والخارج هى التخلص من المحددات القديمة للجدل الأيديولوجى بين اليمين واليسار .. رغم أن ذلك قد يتسبب فى ازعاج المثقفين الذين لا يقدرون على المشاركة السياسية الا كحاملى ايديولوجية أو كنقاد للوضع الراهن » (٤) ويعتقد بل أن اختفاء الأيديولوجية سمة تميز المجتمعات الغربية — وأمريكا بصفة خاصة — دون المجتمعات الأخرى ، ذلك أن المجتمع الأمريكى — والمجتمعات الغربية الى حد ما — قد حقق قدرا من الاتفاق العام ، بحيث اختفت منه أى تيارات أيديولوجية معارضة . واذا كان هناك بعض الجوانب التى يثور حولها الخلاف فانها تكون غالبا متعلقة ببعض المشكلات البسيطة الناتجة عن مجتمع الوفرة البيروقراطى . وهكذا يذهب بل الى أن الأيديولوجيا والحماس لم يعودا « .. ضروريان للمحافظة على النضال الطبقى داخل ديمقراطيات الوفرة المستقرة ، ولكنهما مطلوبان فى بقية أجزاء العالم الأخرى من أجل تطوير نظم سياسية واقتصادية حرة .

---

(٣) E. Shills, «The End of Ideology,» Encounter, Vol. 5, November, 1955.

(٤) D. Bell, The End of Ideology, the ree Press, New York, First Published 1960, Free Press Paperback Edition 1965, p. 406.

فالنضال الطبقى الأيديولوجى لم ينته الا فى الغرب فقط . أما الصراعات الأيديولوجية المتصلة بمشكلات ومستويات التنمية الاقتصادية والنظـــم السياسية الملائمة لمختلف الدول الأخرى (غير الغربية) فسوف تستمر » (٥) .

هكذا كانت فكرة نهاية الأيديولوجيا قمة تيار الدعة والتفاؤل الذى سيطر على عقول منظرى الغرب فى بداية الخمسينيات . فقد اعتقد هؤلاء المنظرون أن مجتمعاتهم قد حققت تكاملا نهائيا وأنها قد قهرت الصراعات الى غير رجعة . ولكن قبل أن ينقضى العقد السادس نفسه بدأت تتفجر القوى التى تحاول عقول هؤلاء المنظرين أن تحاصرها متمثلة فى مجموعة من الحـــركات الاجتمـــاعية Social Movements المنـــاوئة لسياســـات وأيديولوجيات الغرب ، وقد تبنى اليسار الجديد أغلب هذه الحركـات الاجتماعية .

يعتبر بوتومور Bottomore عام ١٩٥٦ عاما حاسما فى ظهور اليســـار الجديد New Left كظاهرة عالمية . وقد ارتبط ظهوره بثلاثة أحداث كان لها تأثيرها العالمى : الهجوم الامبريالى الفرنسى البريطانى على مصر ، وثورة العمال والمثقفين ضد الستالينية،وبدء تحلل بعض مؤسسات النظام الستالينى فى بولندا . فقد فجرت حرب السويس أكبر ثورة للمثقفين فى بريطانيا منذ الثلاثينيات ، بينما دفعت أحداث المجر وبولندا الكثيرين الى الانضمام للحزب الشيوعى وبدأ بذلك تشكل اليسار الجديد فى بريطانيا . أما فى فرنسا فقد عملت هذه الأحداث ، الى جانب حرب الجزائر ، على خلق قوة معارضة شكلت بؤرة اليسار الجديد فى فرنسا . اما فى أمريكا فقد كانت الأحداث التى اثرت على ظهور اليسار تتعلق بسياسة أمريكا الخارجية فى جنوب شرق آسيا وأمريكا اللاتينية ، فضلا عن ثورة الزنوج وثورة كوبا (٦) .

---

(٥) Ibid., p. 417

(٦) Bottomore, Critics of Society, op. cit., pp. 72—73.

ولم تكن الأحداث الخارجية المرتبطة بالسلوك الامبريالى والتى يعرضها بوتومور هنا هى التى تسببت فقط فى ظهور اليسار الجديد بل انه ظهر ايضا كرد فعل لمظاهر الضعف الذى بدا المجتمع الراسمالى يخبرها منذ منتصف الخمسينيات . فقد انتشرت الجريمة على نطاق واسع ، بين الشباب خاصة ، وانتشرت النزعة الفردية ، وزادت حدة الاستهلاك ، والتعلق السياسى . لقد ازدادت الهوة بين أحاسيس الناس وتصوراتهم وبين الواقع الماثل أمامهم الأمر الذى ولد عندهم شعورا بأن هناك بعض مظاهر الخطأ الكامنة فى بناء هذا الواقع (٧) . ولا شك أن هذه الأحاسيس والمشاعر كانت أساسا لمعارضة النظام والوقوف فى وجهه . (٨)

ولكن لابد أن نواجه انفسنا بسؤالين على جانب كبير من الأهمية : هل يمثل اليسار قوة رفض حقيقية ؟ ولماذا نسمه بانه يسار جديد ؟ للاجابة عن السؤال الأول لابد أن نوضح ماذا يعنى مفهوم اليسار . يعرف كولاكويسكى Kolakowski اليسار بأنه حركة نفى للعالم القائم ، وانه يمثل قوة بناءة ترفض العالم من أجل تغييره . ويرتبط رفض العالم من أجل تغييره الى الأفضل — فى اذهان اليساريين — بتصور فكرى معين أو يوتوبيا معينة يعملون على تخطيها وتحويلها الى واقع (٩) . ويذهب كارل أوجلسبى

---

(٧) Carl Oglesby, «The Ideas of the New Left», in : Oglesby (ed) New Left Reader, Grove Press, Inc., New York, 1969, pp. 145—148.

(٨) سوف نركز هنا على تجسد هذه المشاعر فى حركات اجتماعية قائمة على الممارسة ، وسوف نعرض فى الفقرة القادمة لتجسد هذه المشاعر فى آراء وافكار معارضة .

(٩) L. Kolakowaki, «The Concept of the Left», in : C. Oglesby (ed) The New Left Reader, op. cit., pp. 145—148.

وينفى كولاكويسكى عن اليسار فكرة الارتباط الطبقى ، وهو وان كان يدافع عن مصالح طبقة معينة ، الا أن الاتجاه الأخلاقى والأيديولوجى له هو المؤشر الأساسى الذى يمكن من خلاله تعريف اليسار . فالمستوى الفكرى وليس الطبقى هو الذى يعبر عن اليسار .

Carl Oglesby الى أن اليسار يرغب دائما فى التقدم ، ويتوق الى أن يسيطر الانسان على مصيره ، وهو ينظر الى نفسه على أنه المنتصر فى النهاية ، وينظر الى البرنامج الذى يطرحه على أنه نفس الشىء الذى تأمل فى تحقيقه الانسانية على مر الزمن (١٠) . ومن هذين التعريفين يتضح أن اليسار يمثل قوة رافضة ترغب فى تغيير العالم الى الأحسن . ومن ثم فان ظهور اليسار الجديد فى منتصف الخمسينات ، وتبنيه للكثير من الحركات الاجتماعية ، يمثل تحديا ورفضا للبناء القائم ، وللنظرية التى تدعم هذا البناء تزييفا . وهو يمثل انبثاقا لقوى الصراع الكامنة فى قلب هذا البناء ،والتى تسعى النظرية — فى ارتباطها بمشكلة النظام — نحو محاصرتها وتضييق الخناق عليها .

ولقد أطلق على يسار الخمسينيات اليسار الجديد تمييزا له عن اليسار بالصورة القديمة التى ظهرت فى القرن الماضى . هذا فضلا عن أن الاستقرار السياسى الذى حققته الدول الرأسمالية فيما بعد الحرب العالمية الثانية قد جعل قوى اليسار تتقلص الى حد كبير ، ومن هنا فان أى يسار يظهر على مسرح الممارسة السياسية سوف يكون جديدا . ولكن الشىء الهام فى هذا الصدد هو ان هذا اليسار الجديد قد أدرك أن بقاءه لابد أن يرتبط بتحطيم ذكريات ، وادعاءات ، وافتراضات اليسار القديم (١١) . وسوف نرى عندما نستعرض الموقف الأيديولوجى لليسار الجديد أن رؤيته الأيديولوجية تختلف اختلافا كبيرا عن رؤية اليسار القديم ، وان اشتركا فى روحهما العامة التى تستهدف تغيير المجتمع القائم .

ويرتبط تاريخ اليسار الجديد بالحركات الاجتماعية ، تماما كما يرتبط بحركة النقد الاجتماعى الواسعة النطاق للنظام الرأسمالى . فقد ربط

---

(١٠) C. Oglesby, The Ideas of the Left, op. cit., p. 1

(١١) Ibid., p. 19

اليسار نفسه بحركات الاحتجاج الاجتماعى : حركة الزنوج ، وحركة الطلبة ؛ وحركة السلام . وكانت حركة النقد التى قادها زعماء اليسار الجديد ومعاصروره بمثابة المحرك والمساند لهذه الحركات الاجتماعية . وهكذا تقاطع الفكر مع العمل فى حركة مواجهة النظام القديم . واذا كنا سوف نكرس الفقرة القادمة لمعالجة الجانب الفكرى ، فما يهمنا الآن هو أن نلقى الضوء على بعض الحركات الاجتماعية ليتضح لنا مدى الدور الذى لعبته فى تفجير الصراع داخل الحضارة الغربية .

يمكن القول أن نشاط اليسار الجديد قد تمثل فى طفرات من الحركات الاجتماعية بدأت فى الخمسينيات وبلغت ذروتها فى انتفاضة الطلبة فى فرنسا عام ١٩٦٨ . فالظروف الداخلية التى أدت الى ظهور اليسار الجديد لم تختف بظهوره ، بل ازدادت حدة . وقد أدى ذلك بدوره الى ازدياد الاغتراب عند جماعات الشباب ، ومن ثم الانخراط فى الحركات التى تعارض النظام القائم وتناوئه . ولقد بلغ هذا الاغتراب ذروته عام ١٩٦٨ ، وهو العام الذى بلغت فيه الحركة الاجتماعية ذروتها أيضا مما يؤكد صحة الارتباط بين زيادة الاغتراب وزيادة حدة النشاط المناوىء للنظام ويؤكد هذه الحقيقة نتائج بحث أجراه مركز البحوث بجامعة متشجين The University of Michigan Survey Research أوضح هذا البحث أن فترة الستينيات تمثل فترة اغتراب سياسى حقيقى فى الولايات المتحدة فقد بدا الاغتراب فى التزايد حتى بلغ ذروته عام ١٩٦٨ . ولا يعنى ذلك أن فترة الخمسينيات كانت خالية من الاغتراب ، ولكنه يعنى تزايد حدة الاغتراب تدريجيا فى الستينات (١٢) . ويوضح الجدول التالى نسبة الاغتراب كما تعبر عنها استجابات المبحوثين تجاه أربعة عبارات للكشف عن درجة الاغتراب السياسى فى مسوح انتخابات الرئاسة الأمريكية فى الفترة من ١٩٥٢ — ١٩٦٨ (١٣) .

---

(١٢) James S. House., «Political Alienation in America, 1952— 1968», A.S.R., No· 2 April, 1975, pp. 123—125

(١٣) المصدر : المقال السابق مباشرة .

مقياس الاغتراب	١٩٥٢	١٩٥٦	١٩٦٠	١٩٦٤	١٩٦٨
عدم الاهتمام : انا لا أعتقد أن الموظفين الرسميين يهتمون بما يفكر فيه أمثالى	٣٦٪	٢٧٪	٢٥٪	٣٧٪	٤٤٪
عدم المشاركة : ان أمثالى لايملكون أى شىء يقولونه عما تفعله الحكومة	٣١٪	٢٨٪	٢٧٪	٣٠٪	٤١٪
التعقيد : تبدو السياسة والحكومة احيانا على درجة من التعقيد بحيث لا يستطيع أمثالى ان يفهموا ماذا يجرى	٧١٪	٦٤٪	٥٦٪	٦٨٪	٧١٪
الانتخاب : لا نستطيع أن نشارك فيما تفعله الحكومة الا من خلال الانتخاب فقط	٨٣٪	٧٤٪	٧٤٪	٧٤٪	٥٧٪

وتوضح هذه البيانات الكمية تزايد حدة الاغتراب السياسى فى هذه الفترة بصفة عامة ، وهو يعبر عن عدم الرضا عن أسلوب الممارسة السياسية . واكدت نتائج البحث أن عدم الرضا هذا ينتشر بين جميع الفئات السكانية ، حيث لم تظهر البيانات أى فروق بين فئات العمر فى استجاباتهم تجاه المؤشرات الدالة على الاغتراب السياسى ، وان كانت المسوح الانتخابية قد اكدت على تزايد نسبة الاغتراب بين جماعات الشباب المعارضين لسياسة المجتمعات الغربية . ولنا ان نتوقف الآن أمام بعض صور هذه المعارضة كما تتمثل فى الحركات الاجتماعية .

١ — من أول هذه الحركات ثورة الزنوج وحركة الحقوق المدنية . ورغم أن لثورة الزنوج تاريخا بدأ من العقد الأول من هذا القرن حيث أسس دى بوا De Bois الجمعية القومية لتقدم الشعب الملون National Association for the Advancement of Coloured People فى عام ١٩٠٩ ، الا ان الحركة الحقيقية لجماعات الزنوج بدأت بانتفاضات ومظاهرات جرينسبورو

فى عام ١٩٦٠ ، والتى أدت الى تنسيق بين حركة الطلاب وحركة الزنوج فى تنظيم المسيرات والتجمعات ، واخذت الشغب والاحتجاج (١٤) .ولقدكان المطلب لحركة الزنوج هو مزيد من المساواة ، ومزيد من الحقوق المدنية للزنوج فى امريكا . ومع ذلك فقد طورت هذه الحركة برامج للقضاء على الفقر ، واثارت الكثير من المناقشات حول أسلوب المشاركة السياسية فى الولايات المتحدة (١٥) . فضلا عن ذلك فقد أنتجت حركة الزنوج والحقوق المدنية ، انتجت من الزعمـــاء والقـــادة من كانت لهم آراء نقدية وسياسية وعلى راسهم جيمس بالدوين Baldwin وما لكوليم اكس Malcolm X وقد كان هذا الأخير ينـــادى باتحاد الحركات الثورية بالحركات التى تدافع عن قوميتهـــا بحيث يرتبط الثائر فى افريقيا وآسيا بالثائر فى الولايات المتحدة . (١٦)

٢ ـــ ولقد ارتبطت حركة الحقوق المدنية بحركة الطلبة ، وتزعمت قيادة حركة الطلبة جماعة او تنظيم طلابى اطلق على نفسه « حركـــة الطلبة من أجل المجتمع الديمقراطى Student for Democratic Society تـــكون فى بداية الســـتينيات ونســـق بين اعمـــاله واعمـــال حـــركة الحقوق المدنية . ولقد انشغل الطلبة بقضيتين : الديمقراطية واســـتقلال الجامعة . فقد كانت جماعات الشباب تعتقد أن الديمقراطية فى المجتمعات الغربية لا تتيح للفرد أن يشارك فى اصدار القرارات التى تؤثر على حياته ، ومن ثم طور الشباب مفهوم ديمقراطية المشاركة Participatory Democracy الذى يمكن من خـــلاله أن يســـيطر الانســـان على مصـــيره ، ويتخلص ويتخلص من سيطرة التنظيمات الكبرى وصفوة القوة . والى جانب قضية الديمقراطية عارض الطلبـــة النظم الجامعية . فالجـــامعة يجب الا تكون معملا للمعرفة يجهز فيها الطلبة للقيام بالأعمال التى يتطلبها النظام القائم .

---

(١٤) C. Oglesby, «The Idea of the New Left», op. cit., p. 14

(١٥) T.B. Bottomore, Critics of Society, op. cit., pp. 86—87.

(١٦) Malcolm X, «I don't mean Bananas», in : Carl Oglesby, The New Left Reader, op. cit., p. 209

وان الجامعة بذلك تصبح تنظيما بيروقراطيا تسيطر عليها الشركات التجارية . ومن ثم كان أحد المطالب الرئيسية لحركة الطلبة أن تستقل الجامعة وان تكون لنفسها تقاليد وقيما مستقلة عن تقـاليد وقيم عالم التجـارة وعالم السياسة . (١٧) وبالرغم من ان هذه الآراء تتعلق بالجامعة الا انها تتحدى بطريق مباشر أسلوب الادارة البيروقراطى اللاشخصى الذى تتميز بـه التنظيمات الكبيرة ، كما تواجه مشكلة الاغتراب وفقدان الانسان للسيطرة على مصيره . ولقد استطاع الطلبة خلال نهاية الخمسينيات وطوال الستينيات تنظيم الكثير من المظاهرات والتجمعات حتى بلغت ثورة الطلبة ذروتهـا عام ١٩٦٨ .

٣ ـ وارتبطت حركة الطلبة فى بداية الستينيات بحركة السلام Peace Movement والتى جاءت كرد فعل للسلوك الامبريالى للولايات المتحـدة فى البلدان النامية والمتخلفـة . ومن الموضوعات التى اثارتها هـذه الحركة انقسام العالم الى معسكرين وقيام حرب باردة على حساب الشعوب الأخرى ومعارضة حرب فيتنام ، والتدخل الأمريكى لكبح ثورات التحرير فى العالم الثالث كما حدث فى كوبا وجمهورية الدمينيكان . فقد نظرت حركة السلام الى أمريكا والدول الغربية على أنها تمارس ضربا جديدا من الامبريالية يستهدف السيطرة والتحكم فى العالم الثالث عن طريق استبدال الحكم المباشر لهذه الدول بالسيطرة الاقتصادية والسياسية . « فحادثة السويس وتدخل القوات الأمريكية فى شئون الدول الأجنبية ، ودفاع الدول الغربية عن مصالحها الاقتصادية دفاعا مستميتا ، كل تلك الأشياء توحى بأن امبريالية القرن التاسع عشر لم تمت بعد . فبالرغم من المساعدة العالمية والعمـل الذى تمارسه الهيئات الدولية ، فاننا ما زلنا بعيدين عن الحياة فى عالم تتحقق فيه المساواة بين الشعوب والأجناس » (١٨) . وكان من الطبيعى ان

---

(١٧) C. Oglesby, The Idea of the Left, op. cit., p. 14

(١٨) T.B. Bottomore, Critics of Society, op. cit., p. 94

يناهض هذا الشباب الثائر هذا السلوك الامبريالى وان يدعو الى أن التقدم التكنولوجى لا يعنى مزيدا من السيطرة على الضعفاء فى هذا العالم ، وانما يعنى مزيدا من السلام والمساواة . وقد تبلورت هذه القضية من خلال حركة السلام العالمى التى كرست جهودا كبيرة لنشرها والدعوة لها من خلال المظاهرات والتجمعات والمنشورات .

٤ ــ ولقد بلغت ثورة الشباب ، ورفضه للنظام القائم على الاستغلال بلغت ذروتها فى انتفاضات الطلاب عام ١٩٦٨ . والحقيقة ان ثورة الطلبة عام ١٩٦٨ تستحق منا هنا وقفة خاصة ، ذلك لأنها أعطت الدفعة الأخيرة للاتجاهات النقدية الحديثة فى علم الاجتماع والتى ما زالت تظهر حتى اليوم ، فضلا أن هذه الثورة كان لها صدى واسع النطاق على مستوى العالم كله ، واحدثت تغيرات عنيفة داخل المجتمع الراسمالى وجعلته يبدأ من جديد فى اعادة صياغة الكثير من مفاهيمه ، واثبتت أن التناقضات الداخلية لبناء المجتمعات الغربية سوف تستمر .

اجتاحت ثورة الشباب عام ١٩٦٨ كل الدول الراسمالية ، خاصة فرنسا حيث تزعمها دانيال كوهن بندت Daniel Cohen-Bendit والمانيا حيث تزعمها رودى ديتشكه Rudi Dutschke وامريكا حيث تزعمها مارك رود Mark Rudd ودون أن ندخل فى تفاصيل احداث هذه الثورة (١٩) يهمنا ان نؤكد على أسباب تفجرها . فتلك الأسباب تكشف لنا عن طبيعة الصراعات الداخلية التى تود ابرازها .

يمكن القول أن ثورة الشباب قد جاءت كرد فعل مباشر لتناقضات المجتمع الراسمالى وما يمارسه من كبح وسيطرة على الأفراد من خلال

---

(١٩) استمرت المظاهرات الطلابية فى هذه البلدان من مارس حتى يونية ١٩٦٨ . وقد تعرض الطلبة فيها للارهاب الشديد من جانب البوليس . وتجدر الاشارة الى أن حركة الطلبة قد انتشرت فى نفس العام فى بعض الدول الاشتراكية والنامية ، ولكن لاسباب مغايرة للأسباب التى جعلتها تنتشر فى الدول الراسمالية .

وسائل الانتاج الرشيدة ، ووسائل الاعلام ، وتسخير قوى العلم فى ترشيد عمليات الانتاج ، وعدم اتاحة الفرصة أمام جيل الشباب ليشارك فى تحديد مستقبله . ويجمع كل من تناول ثورة الطلبة فى نهاية الستينات بالدراسة على هذه الحقائق . فهذا هو الان تورين A. Touraine (٢٠) يذهب فى تفسيره لحركة الطلبة فى فرنسا الى أن ظهور هذه الحركة ما هو الا رد فعل طبيعى لأيديولوجية الترشيد التى تخفى المصالح الخاصة والتى تتحكم فى الانتاج والاستهلاك . لقد كانت ثورة الشباب مظهرا للتناقض بين من يرغبون فى التكيف والتغير الرشيد وبين من يرغبون فى القوة الديمقراطية القادرة على تنظيم الأبنية الكبرى التى تضمن التطور الاقتصادى وتسير أمور المجتمع . « فلم يعد ممكنا أن نقبل صورة مجتمعنا الصناعى كتنظيم ضخم يركز على نموه الخاص ويفرز طبقة جديدة منبوذة من الفقراء أو الأفراد غير الصالحين تعيش على هامشه . لقد أوضحت حركة مايو أن بعض الصراعات الصناعية ذات النوعية الجديدة قد ظهرت بجلاء داخل المجتمع الراسمالي : فالنضال لم يعد سطحيا وانما اصبح يكمن فى قلب هذا المجتمع المبرمج ذاته .. ان حركة مايو تعبر عن ظهور نسق كلى من القوة الاجتماعية يفوق النسق السياسى القومى ويتعداه . ولهذا السبب فان الحركة تعتبر حركة عالمية عبرت عن تضامن كل الذين يناضلون ضد القوة التكنوبيروقراطية » (٢١) .

ويذهب شربل داغر الى ان حركة الشباب الرافضة ما هى الا مظهر معبر عن عمق الأزمة التى تعيشها الراسمالية المتقدمة . فالمجتمع الراسمالى لا يهتم الا بالتقدم العلمى وبيروقراطية الدولة والمؤسسات الاحتكارية . لقد اصبح هذا النظام ينتج الحاجات الغريزية للانسان مهملا

---

(٢٠) Alan Touraine, «The French Student Movement of May 1968», in : A. Pizzorno (ed) **Political Sociology**, Penguin Books, 1971. pp. 314—316

(٢١) Ibid., p. 316

حاجاته الثقافية : الفنية ، والسياسية ، والاجتماعية ، والفلسفية لقد اثار الجو « العقلانى » المنظم الذى يميز روح الراسمالية ، أثار فى صفوف الشباب مشاعر الخوف ، والتذمر والسخط ، بحيث لم يعد الشباب مادة لينة تقبل كل ما يقدم لها دون ابداء الأسباب . « لقد جاءت تجربة مايو فى أوروبا لتكشف عن عمق وضخامة الطاقات والقوى التى تختزنها هذه الفئـات (من الشباب) فى تصديها لكل المؤسسات القائمة » (٢٢) .

ويرى قادة حركة الشباب انفسهم أن حركتهم ماهى الا رد فعل لمظاهر القصور فى المجتمع والجامعة التى تنقل الى جيل الشباب ثقافـة المجتمع . فمنهم على سبيل المثال دانيال كوهن بندت (٢٣) زعيم حركـة فرنسا الذى كتب — بالاشتراك مع أخيه — يقول : « هناك ٦٠٠٫٠٠٠ طالب يعاملون — فى بعض الأحيان — كأطفال ، وكبالغين فى أحيان اخرى . حقيقة أننا نجد أعمالا بعد تخرجنا من الجامعة ، ولكننا لا ننتج شيئا على الاطلاق . وغالبا مالا نجد بعض النقود ، ولكن قلة منا تعد مقيرة بحق . وبالرغم من أن اغلبنا قادم من أصول بورجوازية ، فاننا لا نسلك دائمـا مثلما يسلك آباؤنا .. اننا ننظر الى أساتذتنا على أنهم آباء أو سلطات علم . ولكننا لا نستطيع أن ننظر اليهم على انهم أساتذة بكل ما تعنيه الكلمة من معنى . » (٢٤)

---

(٢٢) شربل داغر ، ظـاهرة الرفض فى المجتمع المعاصر ، مقـال بمجلة « آفاق » العدد الثانى ١٥ فبراير (شـباط) ١٩٧٤ ، بيروت — لبنان . ص ٢٧

(٢٣) دانيال كوهن بندت (ولد عام ١٩٤٦) هو ابن لابوين المانيين هاجرا الى فرنسا . ولقد درس بندت علم الاجتمـاع فى جامعة Nanterre فى فرنسا وحصل على دبلوم علم الاجتماع فى سبتمبر ١٩٦٨ . ولقد كان زعيما لمظاهرات ٢٢ مارس التى فجرت ثورة الطلبة فى فرنسـا طرد من فرنسا بعد أحداث ١٩٦٨ حيث ذهب الى المانيا ولكنه لم يتخل عن نشاطه أو أهدافه ، فقد قبض عليه فى فرانكفورت أثناء اشتراكه فى احدى المظاهرات .

(٢٤) Gabriel and Daniel Cohen-Bendit, **Obsolete Communism, The Left Wing Alternative.**, trans by Arnold Pomerans, Penguin Books, 11969, p. 41

ويكشف هذا النص عن ثورة عارمة تبدأ من الثورة على النظام الجامعى وتنتهى بالثورة على نظام المجتمع . فالجامعة فى نظر بندت تقوم بدورين متناقضين : دورها كناقلة للثقافة ، وكمكان تنمو فيه النظريات العلمية نموا مستقلا ، ودورها كجهاز بيروقراطى يعد العاملين الذين يحتاج اليهم النظام القائم . ويعتقد الأخوان بندت أن الدور الثانى ، اى الدور الاقتصادى للجامعة هو الذى يحظى بأكبر الاهتمام على حساب نمو العلم والنظريات العلمية . فالجامعة تجند نفسها لخدمة المجتمع ، دون أن تعى أزمته ، ودون أن تحاول فهمه فهما عميقا . ولذلك فانها تفرض على طلابها تقبل العلم دون اى معارضة « فالطالب ما هو الا مستمع ، عليه أن يسجل المحاضرات ، ويستذكرها ، ثم يسترجعها فى النهاية بنفس القضايا والآراء التى تطرحها ، وبنفس اسلوب صياغتها » (٢٥) واذا كان الفساد يعم التعليم الجامعى ، فما هو الا انعكاس لفساد المجتمع فالمجتمع فرض على الفرد دورا معينا دون أن يحدد موقفه من هذا الدور . والفرد بذلك لايشارك فى التخطيط لحياته وعمله ، ولا يعبر عن موقفه من احداث المجتمع الذى يعيش فيه .

وبناء على ذلك فان حركة الطلبة ماهى الا محاولة لتغيير المجتمع برمته بما يسود فيه من أساليب تعليمية . وتعبر عن ذلك كلمات الأخوين بندت نفسها « نحن لا نحتج على أن تعليمنا لا يولى اهتماما لاحتياجاتنا فى المستقبل ، كما اننا لا نشكو من نقص الوظائف ، ولكننا نرفض النظام برمته ، ولقد تحول رفضنا الى أعمال قائمة على العنف لأن بناء المجتمع لا يمكن أن يتحطم من خلال الكلام أو المنشورات السرية » (٢٦) .

وهكذا يمكن القول أن ثورة الشباب عام ١٩٦٨ قد جاءت كرد فعل ايجابى تجاه مظاهر القلق والاغتراب التى يعيش فيها الشباب ، ويفرضها

---

(٢٥) Ibid., p. 47

(٢٦) Ibid., p. 48

عليهم النظام القائم على العقلانية والترشيد ، دون اى اهتمام بحرية الفرد او مصيره . وقد جاءت ثورة الشباب كدليل واقعى وحى على أن هناك واقعا جديدا آخذا فى الظهور يختلف تماما عن الواقع القديم المرتبط بالنظام العام ، وان الأيديولوجيات والنظريات المرتبطة بهذا الواقع القديم لاتستطيع ان تستوعب هذا الواقع الجديد او تسبر اغواره . وتنقلنا هذه النقطة مباشرة الى المستوى الثانى من الصراع الذى نود ايضاحه هنا ، واعنى الصراع الفكرى .

ثانيا : ازمة المجتمع الراسمالى : نحو بناء فكرى جديد

صاحب ظهور اليسار الجديد وما ارتبط به من حركات اجتماعية حركة فكرية عبرت — على المستوى الفكرى — عن رفضها للمجتمع الراسمالى وما يرتبط به من أيديولوجيات ونظريات . ولقد اتخذت هذه الحركة طابعا نقديا موجها الى بناء المجتمع نفسه من ناحية ، والى البناء النظرى من ناحية اخرى (٢٧) . وترجع اهمية هذه الحركة النقدية الى الاعتبارات الآتية :

(أ) ان هذه الحركة تكشف بجلاء عن واقع المجتمع الراسمالى ، وتميط اللثام عن تناقضاته الداخلية التى كانت أساسا لظهور الحركات الاجتماعية المتمردة .

---

(٢٧) نود أن ننوه هنا الى أن الحركة النقدية التى نتحدث عنها هنا تختلف عن الاتجاهات النقدية فى علم الاجتماع . حقيقة اننا سوف نجد أن هناك أوجه شبه كثيرة بينهما ، ولكن الحركة النقدية هنا لم تنبع من علماء الاجتماع فقط ، وانما نبعت من كل القوى الفكرية : السياسية ، والاقتصادية ، والفلسفية ، والاجتماعية . ولقد كان لهذه الحركة تأثير كبير على الصورة المبكرة للحركة النقدية فى علم الاجتماع كما اتضحت عند رايت ميلز ، الذى سوف نفرد له فصلا كاملا فيما بعد .

(ب) أن هذه الحركة قد ارتبطت ارتباطا وثيقا باليسار الجديد ، بحيث يمكن القول أن مهمة النقاد كانت تنحصر فى الكشف عن مشكلات البناء الاجتماعى القائم وربطها بالاطار العام لهذا البناء وما يتحكم فيه من قوى ، بينما كانت مهمة الحركات الاجتماعية محاولة تغيير هذا البناء ، أو ممارسة كافة الضغوط من أجل تغييره . وكلاهما (الفكر والممارسة) يعبران عن بعض مظاهر الصراع الفكرى والبنائى فى المجتمعات الغربية .

(ج) أن الاتجاه النقدى المبكر فى علم الاجتماع — كما تمثل فى آراء رايت ميلز — قد انبثق مباشرة عن هذه الحركة النقدية ، بل انه ارتبط بها وشارك فيها فرايت ميلز — مثل هذا الاتجاه النقدى المبكر — يعتبر أحد دعاة اليسار الجديد ، وأحد الذين وجهوا نقدهم للمجتمع الراسمالى . ولكنه استطاع أن يرتفع من مستوى النقد الاجتماعى الى مستوى النقد السوسيولوجى الأمر الذى ميز آراءه النقدية عن آراء معاصريه من جيل النقاد .

والى جانب هذه الحركة النقدية استطاع زعماء الحركات الاجتماعية وخاصة حركة الطلبة ان يطوروا بعض الآراء والاتجاهات الفكرية التى تضافرت مع الحركة النقدية فى توليد بناء فكرى جديد يعارض البناء الفكرى القديم ويرفضه رفضا . حقيقة أن هذا البناء الفكرى الجديد لم يستطع تغيير البناء الفكرى القديم ، ولكنه دخل فى صراع عميق معه فاستطاع أن يولد مزيدا من النقد ومزيدا من الهدم للفكر القديم .

فقد تميز العقدان السادس والسابع من هذا القرن — وهما العقدان اللذان شهدا اكبر انتفاضة لليسار — بظهور بناء فكرى جديد يخرج عن اطار الفكر المحافظ الذى يرغب فى الابقاء على النظام القائم . واتجه هذا البناء الجديد نحو الكشف عن عيوب هذا النظام فى مقابل التنظير له وحمايته

عند الاتجاه المحافظ ، ونحو فهمه على أنه نظام متماسك غير مترابط البناء فى مقابل فهمه على أنه متكامل العناصر والاجزاء عند الاتجاه المحافظ ، ونحو فهمه على أنه نظام يخبر أزمة داخلية من خلال تناقضات وصراعات كامنة فى صلب بنائه فى مقابل فهمه على أنه يخبر استمرارا واستقرارا مستمرين وانه قد تغلب على كل تناقضاته الداخلية عند الاتجاه المحافظ . وسوف نحاول فى هذه الفقرة أن نتلمس تطور هذا البناء الفكرى الجديد بدءا من محاولات نقد المجتمع وتشخيص أزمته ، وحتى الدعوة السافرة الى رفض النظم القديمة والأفكار المرتبطة بها من خلال زعماء حركات اليسار الجديد ومنظريها .

فى عام ١٩٥٠ أصدر ديفيد ريسمان D. Riesman كتابه الشهير بعنوان The Lonely Crowd الذى عالج فيه مشكلات المجتمع الجماهيرى(٢٨) . أوضح ريسمان فى هذا الكتاب التغيرات فى طابع الشخصية الأمريكية ، الى جانب التغيرات فى بناء المجتمع الأمريكى ذاته فقد أفرزت مجتمعا جماهيريا يتكون من حشود من الأفراد المنعزلين ، الذين يمكن قيادتهم والتحكم فيهم بسهولة ، دون أن يصدروا أى قرار يتعلق بمصيرهم . وفى تفسيره لهذه القضية ميز ريسمان بين ثلاثة أنماط من الشخصية : النمط الذى توجهه التقاليد Tradition-directed والنمط الموجه من الداخل Inner-directed والنمط الموجه من خلال الآخرين Other-directed . وتشير هذه الأنماط الى أساليب مختلفة يواجه الأفراد من خلالها مشكلات الحياة فى مجتمعهم . فهم قد يتعاملون مع هذه المشكلات من خلال القواعد العرفية (النمط الأول) أو يطبقون معيارا معينا يتفقون عليه كطلب أخلاقى (النمط الثانى) ، أو يحاولون الامتثال لما يفعله الآخرون (النمط الثالث) .

---

(٢٨) David Riesman, **The Lonely Crowed. A Study of the Changing American Character,** New Haven, Yale University Press, 1950

وقد اعتمدت فى عرضه على كتاب بوتومور « نقاد المجتمع » السابق الاشارة اليه .

واعتقد ريسمان أن الأمريكيين كانوا يتميزون فى بداية القرن التاسع عشر بأنهم موجهون من الداخل (من خلال تشرب الأخـلاق البروتستنتية) ، ثم اصبحوا فى منتصف القرن العشرين موجهين من خلال الآخرين . فالفرد يسعى دائمـا الى ان يمتثل قيم الجمـاعة التى يجد نفسه داخلها . وقد صاحب هذا التحول تحول فى نوعية المجتمع ذاته حيث تحول من مجتمع تلعب قيمة « العمل » فيه دورا كبيرا الى مجتمع تلعب فيه قيمة « الاستهلاك » دورا اكبر. ولقد طرات بعض التغيرات على العمل نفسه بحيث تحول من شيء يحقق الاشباع الداخلى الى شيء يرضى الآخرين ، فلم يعد النجاح فى العمل يعتمد على كفاءة الشخص ومهارته او على درجة اشباعه الداخلى وانما يعتمد على درجة تكيف الشخص مع العالم المحيط به . وتنسحب هذه التغيرات على دنيا السياسة : فلم يعد الفرد يتحكم فى توجيه ذاته حسبما تملى عليه أخلاقه او مصالحه او كلاهما معا ، وانما اصبح فردا يوجهه فرد آخر ، او جماعة أخرى : تحدد له مصالحه ، ومجالات تعاونه ، وتستدعيه الى الانتخابات متى شاءت وهكذا . وتحول الأفراد بذلك الى مجرد حشود او « قطعـان » Crows توجهها قوى خارجية وليس لها اى سلطان على ذاتها او مصيرها . فضلا عن ذلك فان الموجهات الخارجية التى توجه هذه الحشود لا تدفعها نحو الخلق والابداع ، وانما تدفعها الى مزيد من التشتت والانتشار . ولقد دفع ذلك ريسمان الى المطالبة بأسلوب جديد من التفكير الخلاق أو اليوتوبى ، بحيث يكون هذا التفكير بمثابة تحـديد ثقافى يمكن ان نكتشف من خلاله ضروبا جديدة من النشاط تكون اكثر فائدة لاستقلال الانسان وحريته (٢٩) .

---

(٢٩) ويسم بوتومور هذا النوع من التفكير الذى يطالب به ريسمان بانه تجديد ثقافى لأن هذا التفكير لا يوجه لاحداث تغير سياسى بقدر ماهو موجه الى احداث تغير اجتماعى ثقافى نفسى . غير أننى لا اوافق بوتومور على هذا الراى وذلك بسبب الحقيقة البسيطة التى مؤداها أن التغير السياسى لا يأتى الا بعد أن يكون التغير الثقافى الاجتماعى قد قطع شوطا بعيد المدى . فمن الممكن أن يكون التغير السياسى =

واذا كان ريسمان قد عالج الجوانب الاجتماعية والثقافية للعمل وقت الفراغ ، فان جالبراث Galbraith قد عالج الجوانب الاقتصادية لهما فى كتابه الشهير « مجتمع الوفرة » (٣٠) The Affluent Society . وجه جالبراث نقده لما أسماه بالعقل الاقتصادى التقليدى Conventional Economic Wisdom الذى ينبهر بالتراكم الهائل للسلع الاستهلاكية ، دون أن يدرك تناقص أهميتها فى مجتمع الوفرة . فالسلوك الرأسمالى بالمعنى التقليدى — الذى يهتم فقط بتحقيق أكبر قدر من الربح — يخلق آثارا جانبية خطيرة . ومن ثم يجب أن يتغير بحيث يولى اهمية اكبر لراحة العامل وسعادته . وهنا تظهر مجموعة من البدائل يمكن الاستفادة بها فى الوصول الى مجتمع وافر . أحد هذه البدائل هو زيادة أوقات الفراغ ، أما عن طريق تقليل ساعات العمل ، أو تقليل اعداد الأفراد الذين يعملون بالفعل . وثانى هذه البدائل هو اتفاق بعض الأفراد على العمل ذاته يصبح أكثر سهولة وأكثر سعادة . وثالث هذه البدائل هو العمل بقدر الامكان على تطوير المهن التى تحقق قدرا كبيرا من المتعة لأصحابها خاصة فى المهن التى تتطلب ذكاء ومهارة والتى تعتمد على تحصيل قدر كبير من التعليم . ورابع هذه البدائل هو تحويل عملية توزيع الموارد والتحكم فيها من المستوى الخاص الى المستوى العام ، الأمر الذى يترتب عليه أن يتحول جزء كبير من العائد الى تجويد أساليب المتعة العامة سواء فى المدينة او الريف .

وهذه التحولات التى يتصورها جالبراث يمكن ان تقضى — فى نظره — على الآثار السيئة للأسلوب الرأسمالى التقليدى ، وعلى رأسها عدم

= حتميا أو ممكنا على الأقل اذا ما استطاع الأفراد أن يكونوا نمطا موجها من الدخل

(٣٠) Galbraith, The Affluent Society, 1950

وقد اعتمدت فى عرضه على كتاب بوتومور « نقاد المجتمع » السابق الاشارة اليه .

المساواة . فتحويل عملية التحكم فى الموارد وتوزيعها من المستوى الخاص الى المستوى العام بمعنى تدخل الحكومة فى هذا التوزيع وابعاد الأفراد او القرارات الشخصية عن التأثير فى هذه العملية ، يساعد على توزيع العائد بطريقة عادلة ، ويشجع الدولة على تقديم الكثير من الخدمات . كما ان التوسع فى الميكنة والتعليم سوف يحققان مزيدا من المساواة الاقتصادية ففى المجتمع الذى يلعب فيه التخطيط التعليمى ، والتحكم الآلى ، والانشطة الثقافية دورا كبيرا فى العمليات الانتاجية ، من المتوقع الا يظهر داخله تفاوتا كبيرا فى الدخل .

ورغم المسحة الاقتصادية التى يضفيها جالبراث على آرائه ، ورغم عدم تعمقه فى مناقشة العوامل السياسية الكامنة خلف الأسلوب الاقتصادى الذى يتناوله بالتحليل والنقد ، رغم ذلك فان لآرائه وجهين يكشفان عن ثورة على النظام الاقتصادى القائم : الوجه الأول هو عدم موافقته على النظم الانتاجية التى تؤدى الى انهاك العامل ، واسعاد فئة على حساب فئة أخرى من خلال الاختلاف فى فرص التعليم والاستهلاك ، والاستمتاع بوقت الفراغ . والوجه الثانى هو تصوره لمجتمع جديد هو المجتمع القائم على الوفرة . وهو مجتمع يجب أن تزداد فيه ساعات أوقات الفراغ عن ساعات العمل ، ويجب أن يصبح العمل فيه اكثر جلبا للسعادة والراحة ، كما يجب أن تبرز فيه أهمية المهن القائمة على المهارة والذكاء ، واخيرا يجب أن يتولى فيه تخطيط الموارد وتوزيعها وتخطيط الاستهلاك وتوزيعه مؤسسات عامة بحيث تتحقق أكبر درجة من العدالة والمساواة بين الأفراد .

واذا كان ريسمان وجالبراث قد اهتما بالنقد الاجتماعى الاقتصادى للنظام القائم ، فان هناك من اتجه فكرهم اتجاها نقديا وأيديولوجيا ونظريا فى ذات الوقت . ولقد ارتبط هؤلاء المفكرون ارتباطا وثيقا بحركات اليسار الجديد ، وكان نقدهم للنظام القائم والأيديولوجيات المرتبطة ودعوتهم الى مجتمع جديد وفكر جديد ، كان كل ذلك عونا وسندا لليسار الجديد فى قيادة

حركاته الاجتماعية ودفعها نحو مزيد من أعمال العنف والاحتجاج . على على رأس هؤلاء المفكرين المفكر والفيلسوف هربرت ماركيوز (٣١) . وانعكس آراء ماركيوز قدرته الفائقة على استيعاب أحداث العصر ، وتمثل لما فيه من صراعات وتناقضات ، ثم اعادة تأمل الأبنية الفكرية من خلال هذه الأحداث ، وذلك من أجل هدف أساس هو محاولة تغيير هذه الأبنية الفكرية وبالتالى تغيير المجتمع ذاته . ويهمنا — لتحقيق أغراض الدراسة — أن نبرز ثلاثة عناصر اساسية فى فكر ماركيوز : نقده للأساليب الفكرية السائدة كما تمثل ذلك فى نقده للوضعية ، ونقده للمجتمع كما تمثل ذلك فى نظريته عن الانسان ذى البعد الواحد ، ثم برنامجه أو رؤيته لأسلوب تغيير الفكر وتغيير المجتمع .

١ — فى كتابه « العقل والثورة » (٣٢) أتى ماركيوز بشواهد قاطعة تثبت ان المذهب الوضعى كان منذ بداية نشأته على يد أوجست كونت وتلاميذه فى القرن التاسع عشر ، مرتبطا بالاتجاه المحافظ فى مجال السياسة ، وراضخا للنظام الاجتماعى القائم ، وراغبا فى المحافظة على الأوضاع السائدة ومحاربة أى اتجاه نحو تغييرها . وتلك حقيقة أكدناها فى الفصل الثانى من هذا الكتاب ولسنا بحاجة الى اعادة تأكيدها هنا .

---

(٣١) ولد هربرت ماركيوز فى ألمانيا عام ١٨٩٨ ، ودرس الفلسفة فى برلين وفرايبرج ، وساعد مع ماكس هوركهايمر فى تأسيس مدرسة فرانكفورت فى الماركسية الاجتماعية ، ثم ترك المانيا عام ١٩٣٣ وعمل فى معهد البحث الاجتماعى فى جنيف ، ورحل بعد ذلك الى أمريكا حيث عمل فى جامعات كولومبيا وهارفارد وكاليفورنيا . انظر : موريس كرانستون (مشرف على التحرير) ، **اليسار الجديد** ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٧٣ . ص ص ٧٤ — ٧٥ .

(٣٢) هربرت ماركيوز ، **العقل والثورة ، هيجل ونشأة النظرية الاجتماعية** ، ترجمة فؤاد زكريا ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

وما يهمنا هو تأكيد رفض ماركيوز للوضعية كصيغة فكرية تسيطر على التفكير الرأسمالى . ولم يرفض ماركيوز الوضعية فى صورتها القديمة ، وانما رفضها أيضا فى صورتها المحدثة . ولقد ظهر رفضه لهذه الصورة المعاصرة للوضعية فى الفصول الأخيرة من كتابه « الانسان ذو البعد الواحد » فالوضعية فى شكلها المعاصر هى فلسفة تحليلية تحاول أن تحقق أكبر قدر من الدقـــة العلمية لتتخلص من غموض وميتافيزيقية ولا منطقية المذاهب التقليدية . ولكى تحقق هذه الغاية تركز الوضعية التحليلية على الطابع الشكلى أو الرمزى من ناحية ، وعلى النزعة التجريبية من ناحية أخرى . وفى كلتا الحالين ترفض التناقض مع العالم الشائع ، أو محـــاولة تجـــاوزه أو تغييره . انها بذلك تتضافر مع علم الاجتماع — المرتبط تاريخيا بالوضعية القديمة — فى القضاء على كل انحراف عن القواعد المقبولة فى المجتمع ، واستبعاد الأفكار النقدية التى يمكن أن تقيم رابطة بين هذا الانحراف وبين مثالب المجتمع ككل أو مثالب النظام ككل . ويذهب ماركيوز بناء على هذا الى ان هذه الصورية التى تتميز بها الوضعية التحليلية ما هى الا تدعيم للأيديولوجية القائمة . فهى تمتنع عن تجاوز ماهو معطى وتترك كل شىء على ماهو عليه أو انها تسعى الى احداث « تنسيق بين العمليات العقلية والعمليات التى تجرى فى الواقع الاجتماعى » (٣٣) على حد تعبير ماركيوز .

فالفلسفة الوضعية التحليلية تدعى أنها تسعى الى تحقيق أكبر قدر من وضوح الرؤية ، والتخلص من التعقيد الميتافيزيقى . وفى ســـعيهم الى تحقيق الوضوح يلجأ الفلاسفة التحليليون الى لغة الحياة اليومية ، ويبذلون جهودا مضنية فى تحليل اساليب الحديث الشائعة على انها معيار للتعبير السليم « وهنا تظهر الخطورة الايديولوجية لفلسفة التحليل ، من وجهة نظر ماركيوز . فالاقتصار على اتخاذ الوضوح فى التفكير هدف ، والنظر

---

(٣٣) نقلا عن : السدير ماكنتير ، **ماركيوز** ، ترجمة عدنان كيالى ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ١٢٢ .

الى الحديث الشائع على انه معيار للتعبير السليم ، وعلى أنه الاطار الذى يتحرك داخله كل تعبير سليم ، يؤدى الى حرماننا من فرصة الاحتفاظ بحقنا فى التفكير من خلال عبارات غير العبارات الشائع استخدامها .. ان التعبيرات التى لا يمكن تحقيقها بالمقاييس المعتادة ضرورية ، والخروج على قواعد الاستخدام الشائع ، بل على قواعد المعنى ذاتها ، كان فى أحيان معينة امرا لابد منه لكى تؤدى الفلسفة مهمتها الحقيقية مهمة تمكين الانسان — على المستوى الايديولوجى — من تجاوز الأوضاع الفاسدة العقيمة او المتناقضة السائدة فى واقعه » (٣٤) .

ففهم الواقع المتناقض ، القائم على الوهم والخداع ، يتطلب ضربا من ضروب التفكير يثور على كل ما هو شائع داخل هذا الواقع . فماركيوز هنا يدعو الى بناء فكرى جديد يعارض البناء القديم ويتناقض معه بناء فكرى يوجه نحو فهم الواقع فهما حقيقيا ، ونحو الكشف عن تناقضات هذا الواقع وأساليب اخفاء هذه التناقضات . ومن الطبيعى أن يتناقض هذا البناء الفكرى النقدى مع ضروب الفكر التى تدعم هذا الواقع ولا تسعى الى تغييره « فالتناقض أمر لابد منه لكل فكر نظرى يريد أن يثور على هذا الواقع المتخبط وأن يعمل على تغييره » (٣٥) .

ويكشف هذا العرض السريع لموقف ماركيوز من الفلسفة الوضعية سواء فى صورتها القديمة او الحديثة عن ثورته على أساليب الفكر المرتبطة بمشكلة النظام الاجتماعى العام ، وهى ثورة تنبع من عنصرين اسهما فى تكوين فكر ماركيوز : العنصر الأول هو اعادة تفسير فلسفة هيجل ، وفهمها على أنها فلسفة ثورية ارتبطت بالثورة الفرنسية ، من حيث أنها

---

(٣٤) فؤاد زكريا ، الفلسفة الوضعية بين لينين وماركيوز ، مقال **بمجلة الفكر المعاصر** ، العدد ٦٤ ، يونيو ١٩٧٠ ، ص ٧ .

(٣٥) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

اتخذت من فكرة « السلب » negation محورا اساسيا لها . فحركة الجدل عند هيجل هى حركة تتسم اساسا بأنها رفض وانكار لما هو قائم فعلا ، وسعى الى مركب اشمل منه واقل تناقضا ، ما يلبث أن يدخل فى تناقض جديد وهكذا . « فالسلب كامن فى قلب كل شىء ، اى أن كل شىء يحمل فى داخله نقيضه ، ويحمل ايضا عوامل رفضه والثورة عليه من أجل تجاوزه » (٣٦) . ولا شك أن تشرب ماركيوز لهذه الروح الثورية فى فلسفة هيجل ، وتدعيمها من خلال الفلسفة الماركسية ، قد اكسب فكره طابع الرفض والثورة على ماهو قائم . والعنصر الثانى : هو استيعابه لتناقضات المجتمع الرأسمالى ، وأساليب الفكر المدعمة له . فلم يكن لماركيوز ان يستخدم ما تشربه من فلسفة هيجل وماركس فى نقد الفكر الرأسمالى والبناء الاجتماعى الرأسمالى ، لو لم تكن هناك الكثير من التناقضات الكامنة فى قلب هذا الفكر وذلك البناء . ومن الطبيعى أن يأتى نقده للفكر قبل نقده للواقع ، لايمانه بأن بنية الفكر تفرض على العالم تركيبا معينا ، وتلك مقولة أساسية فى فلسفة هيجل .

٢ ــ وبناء على ذلك تكون فكرة « السلب » نفسها هى التى ولدت لدى ماركيوز القدرة على نقد الواقع الرأسمالى المتناقض ، ذلك النقد الذى قدمه فى كتابه « الانسان ذو البعد الواحد » ويلخص سعد الدين ابراهيم ما جاء فى كتاب ماركيوز هذا فى العناصر التالية : (أ) ان المجتمع الصناعى قد فقد رؤية حقيقة انه نتاج ايديولوجية معينة ، وبالتالى فقد الانسان ايضا هذه الرؤية واصبح يتصور خطأ أن حركته هى حركة مطردة على طريق التقدم . (ب) فات على هذا الانسان أن يفحص الأيديولوجية

---

(٣٦) فؤاد زكريا ، مقدمة الترجمة العربية لكتاب **العقل والثورة** السابق الاشارة اليه ، ص ٨ .

(٣٧) سعد الدين ابراهيم ، **علم الاجتماع الأمريكى بين التراطؤ والثورة** مرجع سابق .

المعاكسة أو البديلة لما هو سائد فى مجتمعه ، ومن ثم اعتقد أن ما هو مرغوب ليس أفضل مما هو موجود . (ج) وهو بذلك لا يستفيد من الامكانية الفنية — روحيا وفنيا وماديا — التى تنبثق عن الملاطمة الجدلية بين ماهو سائد من ناحية وبين نقيضه من ناحية أخرى . (د) وعدم ادراك هذه الامكانية وعدم الاستفادة منها يرجع الى طبيعة التركيب السياسى القائم وتسلط وسائل الاعلام التى تغرق الفرد بطوفان من المعلومات والفرضيات المغلوطة تهدف الى تجميد الوضع على ماهو عليه . (هـ) يترتب على ذلك أن يكون البديل المطروح لتغيير هذا الوجود ذا البعد الواحد هو « التفكير السلبى » الذى يرفض الاشتراك فى « اللعبة » المفروضة بواسطة الصفوة الحاكمة ووسائل الاعلام .

ان ماركيوز هنا يحلل بناء المجتمع الرأسمالى ، ويكشف عن تناقضه الداخلى : التناقض بين التقدم التكنولوجى وبين الواقع الاجتماعى . ففى الوقت الذى تقدم فيه المجتمع من الناحية التكنولوجية والفنية ، لم يستطع هذا التقدم أن يضمن للانسان حريته واستقلاله ، لأن النظام القائم يفرض عليه « بعدا واحدا » فى التفكير والسلوك ، ويغرسه فيه من خلال وسائل الاعلام دون أن يترك له حرية التفكير فى الجانب المعاكس أو الرأى المضاد . ومن الطبيعى أن يدعو ماركيوز الأفراد الى رفض هذا النظام ذى البعد الواحد ، وذلك اذا أرادوا لأنفسهم مزيدا من الحرية والاستقلال فى التفكير .

٣ — وينقلنا ذلك مباشرة الى مناقشة وجهة نظر ماركيوز فى تغيير المجتمع أو مخططه لهذا التغيير . لا شك أن الرفض أو السلب هو الطريق الوحيد لهذا التغيير . ولكن يبقى التساؤل عن نوعية هذا السلب : هل يقتصر على الرفض الفكرى أم يتعداه الى الرفض الثورى ؟ الحقق ان ماركيوز قد حدد لرفض النظام القائم مستويين : مستوى فكرى غايته رفض أساليب التفكير السائدة ونقد مستمر للواقع الذى تدعمه هذه الأساليب الفكرية . ومستوى واقعى غايته رفض الواقع من خلال السلوك الثورى

الذى يحطم كل مظاهر القهر المرفوضة على الأفراد . ولقد اتضح اتجاه ماركيوز نحو العنف الثورى من خلال كتابه « الانسان ذو البعد الواحد » حيث ذهب الى أن فرصة الاحتجاج الثورى تكمن فى لجوء النواة الصلبة من المنبوذين والخوارج والمستغلين والمضطهدين من كل الأجناس والألوان فضلا عن العاطلين عن العمل وغير القادرين عليه ، الى اتخاذ موقف متطرف يمكن من خلاله ان يغيروا حياتهم الى الأفضل . غير ان أفكاره عن العنف الثورى قد اتضحت بجلاء فى مقالين له ظهرا بعد كتابه « الانسان ذو البعد الواحد » . الأول عام ١٩٦٦ بعنوان « نقد التسامح التام A Critique of Pure Tolerance ، وصدر الثانى عام ١٩٦٩ بعنوان « بحث فى التحرير » .

ذهب ماركيوز فى المقال الأول الى أن التسامح الذى تدعيه الديمقراطيات الصناعية المتقدمة ليس سوى ضرب من ضروب الخداع . فسماح هذه الأنظمة للأقلية بالتعبير عن رأيها لا يأتى الا لتأكدها انه ليس لآراء الأقلية اى اثر فعال . فالتسامح يساعد النظام القائم على أن يسيطر على الأغلبية ويتحكم فيها ويقولب أفكارها على نحو يجعلها عاجزة عن فهم الانتقادات الجذرية أو الاستماع اليها (٣٨) . ومن ثم يرفض ماركيوز مبدأ التسامح لأنه السبب الحقيقى للسيطرة على جموع الشعب ، وفى مقابل هذا الرفض يدعو الى التعصب الثورى ضد كل النظم المعادية للاشتراكية. فلابد من التعصب « .. ضد الفكر والرأى والكلمة ، وضد الاتجاه المضاد، اى ضد المحافظين المزيفين واليمين السياسى . وهذه الأفكار اللاديمقراطية ما هى الا استجابة للتطور الفعلى للمجتمع الديمقراطى الذى حطم أسس التسامح التام . لأن الظروف التى يمكن أن يصبح فيها التسامح قوة

---

(٣٨) السدير ماكنتير ، ماركيوز ، **مرجع سابق** ، ص ١٤٩

محررة ومهذبة ما تزال غير موجودة » (٣٩) .

ولقد تقدم ماركيوز خطوة اخرى فى مقاله « بحث فى التحرير » ليرسم استراتيجية لتحرير الانسان فى المجتمع الحديث . فاذا كان الطريق الى التحرير هو العنف الثورى كان لابد أن يحدد ماركيوز القوى التى تتزعم هذا العنف الثورى . يذهب ماركيوز فى هذا المقال الى ان المجتمعات الصناعية المتقدمة (بما فيها الاتحاد السوفيتى طبعا) قد نجحت فى أن تجعل غالبية سكانها يتكيفون مع نظمها بحيث أصبحت احتياجات الأفراد ومطامحهم متماثلة باستثناء اقلية صغيرة . هذه الأقلية هى التى تدرك احتياجاتها الحقيقية ، وهى التى يمكن أن تكشف من خلال وعيها مثالب النظام القائم . ولأن الأكثرية (غالبية السكان) غير قادرة على الاعلان عن حاجاتهم الحقيقية ، فان هذه الأقلية الواعية يجب ان تتولى هذه المهمة عنهم . ومن ثم يجب أن تخف هذه الأقلية الواعية لنجدة الأغلبية المسلوبة الارادة المغلوبة على امرها . ولا تتمثل هذه الأقلية فى طبقة العمال . حقيقة أن هذه الطبقة تستطيع أن تحطم نظام الانتاج وعلاقاته وتعيد تشكيلها من جديد ، ولكن الواقع يكشف عن أن هذه الطبقة ليس لديها من الاهتمام ولا من الحاجة ما يكفى لدفعها للقيام بهذه المهمة . وهى متلاحمة مع النظام تلاحما قويا . واذا كان ماركيوز قد عزل الطبقة العاملة من دورها التاريخى ، فانه لم ينط هذا الدور بفئة معينة . فيجب أن يقوم به كل من يحس الاستغلال والظلم تحت وطأة النظام . ومن ثم فان الثورة يمكن أن تتم على ايدى الطلبة ، والزنوج من سكان الأكواخ ، وانصار الثورة الثقافية فى

---

(٣٩) Herbert Marcuse, **A Critique of Pure Tolerance.** Essays by R. Wolk, B. Morie Jr., and Marcuse, Beason Press, 1966.

والنص نقلا عن موريس كرنستون ، « هربرت ماركيوز » ، فى موريس كرانستون (مشرف على التحرير) ، اليسار الجديد ، **مرجع سابق** ، ص ٧٣ .

الصين ، وجبهات التحرير فى كوبا وفيتنام . وتختلف هذه القوى فى أصولها الطبقية وطبيعة تكوينها ، ولكنها تشترك فى عنصر واحد هو عداؤها لحكومات المجتمعات الصناعية المتقدمة . ويركز ماركيوز تركيزا خاصا على الحركات الطلابية ، ويعتبرها حركات تحرير أصيلة لها ثقافة تختلف اختلافا كبيرا عن ثقافة السوق الشائعة وتتناقض معها ، وهنا تكمن قوتها وقدرتها على التغيير . (٤٠)

وتكشف آراء ماركيوز هنا عن ثلاثة عناصر .

العنصر الأول : انه تخلى كلية عن الدور التاريخى للطبقة العاملة بالمفهوم الماركسى ، بسبب وضع الطبقة العاملة فى المجتمعات الصناعية ، حيث استطاعت هذه المجتمعات أن تشكل هذه الطبقة داخل نظمها الرأسمالية ، وأن تقدم كل المغريات جعلها تتخلى عن دورها التاريخى . ولا شك أن ماركيوز قد رأى أن بنية المجتمعات الصناعية الحديثة لم تفرز طبقة معينة تستطيع أن تقوم بمهمة تحرير هذه المجتمعات . فقد فشلت الثقافة الغربية فى انتاج طبقة تتخطى قدرات النظام القائم ، بحيث يؤدى وجودها الى تغيير علاقات الانتاج القائمة . ولذلك رأى ماركيوز أن الثورة لابد أن تقوم بها فئات مختلفة ذات أصول طبقية مختلفة ، تتفق على رؤية نقدية صريحة للمجتمعات الصناعية .

العنصر الثانى : أن التحرير فى مفهوم ماركيوز لا يشتمل على تحرير المجتمعات الصناعية الحديثة فقط ، وانما يمتد ليشمل كل انحاء العالم ، وحيث توجد أقدام لهذه المجتمعات ايضا . فلا شك أن جانبا

---

(٤٠) السدير ماكنتر ، ماركيوز ، ص ص ١٤٦ — ١٤٩ .

كبيرا من القهر والظلم فى العالم الثالث يرجع الى امتداد نظام السيطرة والتحكم السائد فى المجتمعات الصناعية الى هذا العالم . ومن هنا تأتى ضرورة تحالف القوى الثورية فى هذا العالم مع القوى الثورية فى العالم الصناعى نفسه من أجل تحقيق تحرر عالمى .

العنصر الثالث : تكشف آراء ماركيوز عن ادراكه للعلاقة القوية بين الصراع البنائى والصراع الفكرى . فكل منهما يثرى الآخر ، ويفتح له آفاقا جديدة . فالفكر النقدى يلهم الحركة الاجتماعية رؤية حقيقية بالبناء الاجتماعى القائم . والحركة الاجتماعية تقدم للفكر النقدى أشكالا جديدة من الصراع والممارسة السياسية تجعله يتقدم نحو فهم أعمق للبناء الاجتماعى . ومن خلال الجدل المستمر بينهما تزداد حدة التصادم والصراع بينهما وبين البناء القديم والفكر القديم اللذين يسعيان الى تغييرهما .

ولعل فى هذه العلاقة بين الحركة الاجتماعية والفكر النقدى ما يفسر لنا الموقف الفكرى لزعماء الحركات الطلابية عام ١٩٦٨ ، ذلك الموقف الذى يضيف لنا مثالا جديدا على حدة الصراع الفكرى فى المجتمعات الصناعية . فلا يختلف الباحثون على أن أعضاء الحركات الطلابية ينتمون الى اليسار الجديد ولكن الكثير من هؤلاء الباحثين يتهمون أعضاء اليسار الجديد من الشباب بأنهم من أنصار نزعة معاداة الفكر (٤١) . Anti-Intellectualism والسبب الرئيسى وراء توجيه هذا الاتهام هو موقف الجيل الجديد من الأيديولوجيات السائدة فى المجتمعات الصناعية

---

(٤١) اذا كانت المعرفة الانسانية قائمة على العقل والتفكير ، فان بعض الباحثين يعتقدون أنه قد سادت ببعض فترات التاريخ نزعة تحارب العقل والفكر أطلقوا عليها نزعة معاداة الفكر Anti-Intellectualism فقد الف هوفستادر Hofstadter كتابا بعنوان « نزعة معاداة الفكر فى الحياة الأمريكية » قدم فيه العديد من الأمثلة على معاداة ومعارضة =

المتقدمة . ولكننا نقرر هنا أن رفض هـذه الأيديولوجيات لا يعنى أن جيل الشباب يعادى الفكر أو يخاف منه ، وانما هو موقف يحتاج الى الكثير من التأمل والتفسير . فتفسيره على انه ضرب من ضروب معاداة الفكر هو تفسير ينطوى على الكثير من البساطة والسطحية .

ولقد بذل الكثير من الباحثين جهوداً لتفسير هذا الموقف على رأسهم الفن جولدنر الذى فسره فى ضوء الاختلافات بين الجيل القديم والجيل الجديد : الاختلاف فى الاهتمامات ، وفى البناء الفكرى ، وفى المشاعر والاحساسات . فالتغيرات التى طرأت على المجتمعـات الغربيـة انتجت بناء جديدا من الاحساسات والمشـاعر ، ومن ثم كان لابد أن يرفضـه الجيل الجديد — الذى يمتلك هذه المشاعر والاحساسات الجديدة — النظريات القديمة التى انتجها جيل الكبار (٤٢) . ولا شك أن تفسير جولدنر ينطوى على جانب كبير من الصواب ، غير اننا نود أن نطرح تفسيرا جديدا لهذا الموضوع .

نقرر بداءة أن الموقف الراديكالى لجماعات اليسار الجديد لا ينطوى على أى نوع من معاداة الفكر ، ولكنه يرتبط بموقفهم من أسلوب تغيير المجتمع وتصوراتهم عن هذا التغيير . والمحقق أن جماعات الراديكاليين يرفضـون الأبنية الاجتماعية القائمة على القهر والاستغلال ويرغبون فى تغييرها . وبناء

= الحياة الفكرية فى المجتمع الأمريكى والتى بلغت ذروتها فى الخمسينيات . ولقد ظهرت هذه النزعة بطريقة عارضة وجزئية فى بعض الفترات التاريخية، فى فرنسا فى اثناء حكم نابليون ، فى بريطانيا بين ملاك الأرض فى القرن التاسع عشر ، ولكنها تظهر فى اى مكان بنفس قوة ظهورها فى أمريكا . انظر :

R. Hofstadter, **Anti-Intellectualism in American Life**, Alfred A. Knoph, N.Y., 1964.

Bottomore, Critics of Society, **op. cit.**, pp. 120—122.

A Gouldner, The Coming Crisis, **op. cit.**, (٤٢)

وتجدر الاشارة الى أن هذا التغير يتفق مع اهتمامات جولدنر بتغيير الفكر كمنتج من منتجات البناء الاجتماعى ، وكانعكاس لمشـاعر المنظر واحاسيسه ورؤيته للعالم على ما سنرى فى الفصل الثامن من هذا الكتاب .

على هذا يعتبر رفضهم للأساليب الفكرية القائمة هو انعكاس لرفضهم للأبنية الاجتماعية التى يرتبط بها هذا الفكر . ولايدل هذا على رفض كل انواع الفكر على اطلاقها . وقد قررنا آنفا أن هناك علاقة جدلية بين الفكر النقدى الذى تزعمه هربرت ماركيوز وبين الحركات الاجتماعية . ولا شك أن قادة هذه الحركات واعضاءها قد احسوا أن هناك من يتولى عنهم المهمة الفكرية ، أو أن هناك من يعبر عن افكارهم تعبيرا دقيقا . واذا كانت أفكار ماركيوز قد توصلت الى نقطة طالب فيها بالعنف الثورى من أجل تغيير الفكر والواقع والبحث عن اطار فكرى جديد ، فان هؤلاء الراديكاليين قد أحسوا أن مسئوليتهم ليست مزيدا من الفكر وانما مزيد من الممارسة ومزيد من العنف. ولكنه — رغم ذلك — عنف لا ينفصل عن الفكر فالفكر — أو رفض الفكر — هو الذى دفع الراديكاليين اساسا الى هذا العنف الثورى ، والعنف الثورى بدوره هو الطريق الى استراتيجية جديدة وواقع اجتماعى جديد . فالعنف الثورى المرتبط برفض الفكر القائم هو اذن حلقة فى هذه الحركة الجدلية المستمرة بين الفكر والواقع .

فالحركة الثورية لم تكن حركة عفوية فجرتها ازمة طارئة ، وانما كانت نتاج ازمة مستمرة فى المجتمعات الصناعية استطاع الفكر النقدى أن يكشف عن عناصرها ، ومن ثم وضع الأساس للحركة الاجتماعية الثورية التى تعد احد الوسائل — ان لم تكن أهمها — نحو تغيير المجتمع الذى يعيش هذه الأزمة . ونستطيع ان نبرهن على ما نذهب اليه هنا من واقع حديث الثوار انفسهم . يقول كوهن بندت « .. ان الحركة الطلابية لا تطالب بالاصلاح (بالرغم من ان نشاطها قد بعث هذا الاصلاح) ولكنها تحاول — فى ضوء اهدافها الحالية — ان تتوصل الى استراتيجية يمكن أن تغير المجتمع برمته تغييرا جذريا»(٤٣) . واذا كان هذا النص يكشف عن مدى وعى الحركة الطلابية

---

(٤٣) Gabriel and Daniel Cohhen Bendit, Obsolete Communism, The Left Wing Alternative, op. cit., p. 48

بأهدافها ودورها وأسلوبها فى تغيير الواقع عن طريق استراتيجية معينة وهى استراتيجية لابد أن تكون استراتيجية فكرية وواقعية فى ذات الوقت ، اذا كان ذلك كذلك فان كلمات رودى ديتشكه — زعيم الحركة الطلابية فى المانيا — كانت اكثر تعبيرا من كلمات بندت حيث كتب يقول « يجب أن نتوقف كل المفاهيم القديمة للاشتراكية من خلال النقد بدلا من تحطيمها أو المحافظة عليها بطريقة صناعية . ونحن لا يمكن أن نعثر بسهولة على مفهوم جديد. ان مثل هذا المفهوم الجديد يمكن أن يظهر فقط من خلال النضال الفعلى ، ومن خلال التكامل المستمر بين التصور والفعل ، بين النظرية والممارسة (٤٤) . وهذا النص يعبر أصدق تعبير عن الموقف الحقيقى لجماعات الراديكاليين . فهو يرفض الاشتراكية القديمة ، ولكنه لا ينفى أنه اشتراكى . انه يرفض مفهومات الاشتراكية القديمة ويعبر فى نفس الوقت عن الحاجة الى مفاهيم جديدة للاشتراكية . ولكنه لا يعتقد أن هذه المفاهيم يمكن أن تبتدع ابتداعا ، بل يعتقد أنها لاتنمو ولا تزدهر الا من خلال جدلية العلاقة بين الفكر والواقع ، بمعنى النقد المستمر للفكر والثورة المستمرة على الواقع .

فضلا عن ذلك فان كتابات هؤلاء الثوار تكشف عن أن لهم افكارهم الخاصة المتأثرة تأثرا كبيرا بآراء هربرت ماركيوز . ذلك لأنهم قدموا تحليلات ممتازة للأبنية الاجتماعية فى المجتمعات الصناعية الراسمالية والاشتراكية ، مركزين على دور الدولة ووضع الجامعة داخل المجتمع ، وخطورة المد البيروقراطى ، ومكانة الطبقة العاملة . ولقد قدموا خلال هذه التحليلات تصوراتهم واستراتيجيتهم لتغيير المجتمع .

ففى كتابهما بعنوان « الاشتراكية المبتذلة : بديل جناح اليسار » (٤٥) .

---

(٤٤) Rudi Dutschke, «On Anti-Authoritarionism», in C. Oglesby (ed)., The New Left Reader, op. cit., p. 256

(٤٥) G. and D. Cohen-Bendit, Obsolote Communism, op. cit., p.

قدم الأخوين بندت تحليلا جيدا للبناء الاجتماعى فى المجتمعات الصناعية واهتما بظاهرة البيروقراطية ومدى تحكمها فى نشاط نقابات العمال ونشاط الحزب الشيوعى الفرنسى وانتاجها لطبقة ادارية جديدة . أما بالنسبة للبلدان الاشتراكية فقد اوضحنا مدى ما تسببت فيه البيروقراطية من اضرار أدت الى تجاوز طبقة البروليتاريا ، ومحاولة قيادتها من أعلى ، فضلا عن تقلص الصراع الطبقى . كما قاما بتحليل دور الطبقة العاملة وأوضحا الاسباب الكامنة وراء سلبيتها وعدم قدرتها على النضال . ولاشك أن هذا التحليل البنائى كان يستهدف شيئين : توضيح أن اسباب تمرد الشباب وثوريتهم كامنة فى تناقضات البناء الاجتماعى وصراعاته الداخلية ، ثم — وهذا هو الشىء الثانى — بداية رسم استراتيجية لتغيير هذا البناء . والحقيقة انهما تحدثا كثيرا عن هذه الاستراتيجية . وعندما بدأ هذا الحديث دخلا فى حوار مع لينين . فهما يعارضان رأيه الذاهب الى أن المناضل الحقيقى هو محام عن الشعب يستعمل كل مظاهر الرعب والاضطهاد ليفسر منطلقات الاشتراكية ومطالبة الديمقراطية . وسبب المعارضة هنا يأتى من انهما ينظران الى العمل الثورى على انه محاولة لفهم تطلعات الجماهير والتعبير عنها ، ومن ثم فان الثائر او المناضل لا يمكن أن يكون قائدا ولا يجب أن يكون كذلك . انه يعيش وسط الجماهير ومن أجلهم . « فالثوار اقلية مناضلة تنحدر من طبقات اجتماعية مختلفة ، وهم يكونون جماعة منظمة بسبب اشتراكهم فى ايديولوجية واحدة ، ولأنهم يتعاونون سويا فى الكفاح ضد الاضطهاد ، وتخليص انفسهم من التجهيل (التعمية) الذى تمارسه الطبقات الحاكمة وجماعات البيروقراطيين(٤٦) . ويضيفان « .. يجب أن تتم الممارسة السياسية داخل كل ابنية المجتمع ، فى نوادى الشباب ، وفى بيوت الشباب ، وحتى حلقات الرقص وشوارع المدينة .. فالنضال يجب ان ينتقل الى كل مكان له صفة

---

(٤٦) Ibid., p. 254

السوق » (٤٧) والنص الأول يكشف عن وجهة نظر الأخوين بندت فى الجماعة المنوط بها القيام بالثورة . فهى لا تتمثل فى طبقة معينة ، وانما فئات منحدرة من طبقات عدة تجمعها الأيديولوجية المعادية للنظام ، تكون جماعة منظمة Band ولا تكون طبقة . ويكشف النص الثانى عن أسلوب الممارسة السياسية التى يجب أن تنتهجه هذه الجماعة المنظمة . أن أسلوبها هو « حقن » العمل الثورى فى مكان — من الشارع والملاهى الليلية ، وحتى اكثر التنظيمات تعقيدا وعلى رأسها الجامعة — فذلك النوع من العمل الثورى سوف يدفع الأقليات الأخرى المظلومة والطبقات الأخرى . وعلى رأسها العمال الى محاولة تحرير نفسها من قيود البيروقراطية والانضمام الى قوة العمل الثورى . ولا يخفى علينا من خلال عرض هذه الأفكار مدى تأثر الأخوين بندت بآراء هربرت ماركيوز .

أما رودى ديتشكه اليسارى الألمانى الجديد فيذهب الى أن حركات الطلاب هى حركات تعادى التسلطية المنتشرة فى كل مكان على هذه الأرض : فرنسا ، انجلترا ، اسبانيا ، المكسيك ، تشيكوسلوفاكيا . فثورة الطلبة هى ثورة راديكالية تعادى التسلطية Anti-Authoritarian ولقد اكتسبت هذه الصفة من تسلطية المجتمع الرأسمالى ذاته وعدائها لهذه التسلطية التى تكبح حرية الفرد والجماعة . يقول « نحن لا نرتبط سويا من خلال نظرية مجردة عن التاريخ ، ولكن من خلال مقتنا لحاضر المجتمع الذى يلفظ الحرية ومن ثم يكبح بوحشية مصالح وحاجات الأفراد والشعوب التى تحاربه من أجل التحرر الاجتماعى والاقتصادى » (٤٨) . ومحاربة التسلطية لاتقتصر على الدول الرأسمالية بل تمتد الى الدول الاشتراكية والعالم الثالث . فالنظرة الى التحرير عند ديتشكه نظرة عالمية تماما مثلما هو الحال عند ماركيوز . ولنقتبس مرة اخرى من ديتشكه » ان النظام القائم يستخدم كل الوسائل المتاحة

---

(٤٧) Ibid., p. 255

(٤٨) Dutschke, «On Anti-Authorianism», op. cit., p. 251.

له ليحرمنا من أن نخلق الظروف التى يستطيع الأفراد أن يعيشوا فى ظلها حياة خلاقة دون حرب ، وجوع ، وعمل قائم على الكبح . ويجب على كل معارضة راديكالية لهذا النظام أن تكون نظرتها عالمية . فمهمة نشر الكفاح الثورى على مستوى العالم globolization هى اهم مهمة ملقاة على عاتق الذين يعملون على تحرير الجنس البشرى فى العالم المعاصر » . (٤٩)

ان ديتشكه هنا يدرك امتداد تسلطية النظم الراسمالية الى كل اجزاء العالم وحتى وأن لم يكن النظام القائم راسماليا ، ومن ثم تتعدى نظرته التحررية وآماله حدود الوطن لتشمل كل العالم غير المتحرر . وهو بذلك يرسم طريقا محدودا واستراتيجكة خاصة للعمل الثورى .

ونستطيع أن نستشف أيضا الكثير من الأفكار والاتجاهات المرتبطة بحركة اليسار الجديد من خلال المنشورات والنداءاتالتى كانت تخرج فى أتون الثورة الطلابية فى فرنسا ولنأخذ أحد هذه النداءات وهو بعنوان «نداء من السوربون» The Appeal from Sorbonene وقد خرج عن الاجتماع المفتوح للطلبة فى ١٣ — ١٤ يونيو ١٩٦٨ (٥٠) . يتكون هذا النداء من ثلاثين فقرة تحدد اهداف الحركة الطلابية وعلاقتها بالحركات الاخرى ، والطبقات الأخرى ، واستراتيجيتها الخاصة . ولننتقى منه بعض الفقرات التى تكشف عن نوعية فكر هؤلاء الثوار :

فقرة ٢ : اننا لا نفصل انفسنا عن الاستفادة بقدرات الطبقات الاخرى فى المجتمع . ولا نعزل انفسنا كطبقة من الطلبة لها مشكلاتها الخاصة اننا عاملون مثل الآخرين . ويجب أن ندفع الثمن مثل كل عامل له وظيفة تاريخية .

---

(٤٩) Ibid., p. 244

(٥٠) «The Appeal from Sorbonne, The Open Assembly of June 13—14, 1968» in : Oglesby (ed) The New Left Reader, op. cit., pp. 267—273

فقرة ٧ : اننا البروليتاريا العاملة فى المجتمع الاستهلاكى . فلنتقبل وظيفتنا التاريخية ولنعمل بأنفسنا وبتعاون مع البروليتاريا العاملة .

فقرة ٨ : اننا لن نستسلم لاتهامنا بأننا نعادى السياسة A Polotical لقد كان نضالنا دائما نضالا سياسيا ولا يمكن أن يكون غير ذلك .

فقرة ١٠ : اننا نرفض النزعة الثورية . فليست المسألة مسألة احداث ثورة . فالثورة ليست رفاهية أو فنا ، انها ضرورة تاريخية ولكن عندما تستكمل كل وسائل قيامها . ان الثورة هى استمرار للجدل فى وقت لم يعد فيه الجدل ممكنا .

فقرة ٢٣ : لنرفض كل فصل بين العلم والأيديولوجيا ، أن هذا الفصل يفرض عليك أن تكون علميا الى الحد الذى يصبح فيه العلم هو الأيديولوجيا ويكون هو الضمان لكل مظاهر سوء استخدام الأيديولوجية العلمية .

فقرة ٢٩ : أن الثورة البرجوازية كانت ثورة قانونية ، وكانت ثورة البروليتاريا ثورة اقتصادية . اما ثورتنا فسوف تكون ثورة اجتماعية وثقافية بها يستطيع أن يسترد الانسان ذاته التى فقدها .

ومن خلال هذه الفقرات يمكن أن نستهدف دليلا جديدا على عدم معاداة ثوار اليسار الجديد للفكر . فالحركة الاجتماعية التى تعى علاقتها بالطبقات الأخرى ، والتى تحدد لنفسها دورا تاريخيا معينا ، وتعتبر نضالها نضالا سياسيا ، وتؤمن بأن الثورة لن تقوم الا اذا اكتملت عوامل قيامها والتى تطالب بالتزام العلم بالأيديولوجية ، والتى ترفض كل الأيديولوجيات التى تقيد حركة الانسان ، هذه الحركة ليست حركة عشوائية ، بل أن اتجاهها هذا

يكون أيديولوجية محددة المعالم . أيديولوجية لم تتم من فراغ ، وانما من جدلية العلاقة بين الفكر والواقع . ان الحركة الاجتماعية الثورية تقودها افكار معينة بثها عظماء فلاسفة اليسار الجديد (على رأسهم ماركيوز) ان هذه الحركة ترفض الأفكار القديمة ، ولكنها تؤمن أن بديل هذه الأفكار لا يأتى من صنع الخيال الفردى . أن هذا البديل لابد ان يكون من نتاج العمل الثورى المستمر والخبرة المستمرة والنقد المستمر للواقع القائم . ونحن ننظر الى الأفكار التى قدمها قادة الحركات الاجتماعية على أنها ارهاصات فكرية عظيمة كانت نتاج اول تصادم بين الفكر والواقع . لا نبالغ اذن اذا قلنـــا فى نهاية هذا العرض أن هذه الحركات كانت وما تزال ، نبت فكر أصيل ، وسوف تظل مولدا خلاقا لأنبل أنواع الفكر ، واعنى الفكر الثورى .

ولقد حاولنا فيما سبق استعراض الفكر النقدى بدءا من اول العقد السادس من هذا القرن وحتى نهاية العقد السابع ، وذلك بهدف القاء الضوء على بعض مظاهر الصراع الفكرى داخل الحضارة الغربية ، والدعوة من خلال هذا الصراع الى رفض اشكال الفكر القديمة والمطالبة ببنـــاء فكرى جديد . ولقد اكدنا فى بداية هذا الفصل أن الصراع أو التناقض بين الفكر القديم والفكر الجديد وبين البناء القديم والبناء الجديد هو الذى انتـــج الاتجاهات النقدية الحديثة فى علم الاجتماع . لكن يجب ان نتساءل : لماذا ظهرت فى علم الاجتماع بالذات ؟ وما هو الاتجاه الذى اتخذته ؟ اجابة هذا السؤال فى الفقرة القادمة .

ثالثا ــ من ازمة المجتمع الى ازمة العلم :

كان الجـــدل الفكرى والبنائى يدور حول الصيغة القائمة للمجتمع الصناعى ، فى طريق البحث عن صيغة جديدة لهذا المجتمع . فالصيغة القديمة تخبر ازمة ذات وجوهعديدة : انتشـــار البيروقراطية ، سيطرة الشركات الكبرى ، تقييد حرية الانسان ، واخيرا ارتباط العلم بالرأسمالية وسعيه نحو

خدمتها . وعلم الاجتماع هو العلم الذى يفسر طبيعة المجتمع ، ويضع النظرية التى تحدد طبيعة العلاقات داخله . ومن ثم كان لابد أن يكون النقد الموجه الى المجتمع والمشخص لأزمته ، موجها بدوره الى العلم الذى يفسر طبيعة هذا المجتمع ومسار العلاقات الاجتماعية داخله . فهذا العلم يحوى الكثير من النظريات التى لا تكتفى بتفسير البناء القائم ، بل تحاول أن تبرره وتدافع عن مشروعيته على ما رأينا فى القسم الأول من هذا الكتاب . وكان من الطبيعى أن يدفع ذلك الأمر جيلا من السوسيولوجيين الى اعادة النظر فى المفاهيم والنظريات التى قدمها العلماء المرتبطون بالنظام القائم . ولقد جاءت « اعادة النظر » هذه فى شكل سيل متدفق من الاتجاهات النقدية بدأت تفند نظريات العلم وترفضها من أجل اقامة نظريات جديدة أكثر كفاءة فى تفسير الواقع وما يشتمل عليه من متغيرات .

ولقد ساعد على ظهور هذه الاتجاهات أن أزمة المجتمع قد انعكست على علم الاجتماع ذاته فأزمته هو الآخر فى أزمة . وقد تمثلت هذه الأزمة فى الكثير من التناقضات الداخلية الكامنة فى بناء العلم ذاته . ولاشك أن هذه التناقضات قد دعمت البناء الفكرى الجديد وجعلته يكسب أرضا جديدة فى صراعه مع العلم الاجتماعى . وتنبع أزمة العلم — فى أحد جوانبها — (٥١) . من التناقض الشديد بين مثاليات العلم وسلوكه الواقعى . فقد انبرى العلماء يدافعون عن الموضوعية والحياد القيمى ، ويروجون لمبدأ ماكس فيبر الشهير «عن التحرر من القيم» ، فى الوقت الذى نجد فيه أن النظريات التى ينتجها هؤلاء العلماء ترتبط اشد الارتباط بالنظام العام فى المجتمع ، وان البحوث التى يقدم هذا العلم على اجرائها هى البحوث التى تخدم أغراض الشركات الكبرى وتدافع عن ايديولوجيتها وقيمها . ولقد رأينا فى الباب السابق نماذج من هذه النظريات والبحوث ، وأوضحنا كيف ترتبط النظريات بمشكلة النظام العام فى المجتمع .

---

(٥١) سوف نعرض لهذا الجانب فقط ، والذى يمثل وجهة نظرنا ، اما جوانب الأزمة الأخرى فسوف نستفيض فى الحديث عنها فى الفصل الثامن من هذا الكتاب .

وكيف تجسد البحوث الحل المحافظ لهذه المشكلة فى الواقع الامبيريقى . ولا نود هنا أن نستطرد فى هذا الموضوع ، وكل ما نوده هو أن نشير الى برهان آخر لذلك التناقض الكامن فى بناء العلم الاجتماعى فى المجتمعات الغربية .

يدافع علماء الاجتماع دائما عن تهمة التحيز الأيديولوجى لنظرياتهم ، ولكنهم يظهرون فى بعض الأوقات — بوجه سافر — التحيز الأيديولوجى . ولقد ظهرت تلك الحقيقة بجلاء فى مشروع كاملبوت . وهو مشروع تبناه مكتب أبحاث العمليات الخاصة التابع للجامعة الأمريكية بواشنطن ، واستعدت لتمويله وزارة الدفاع الأمريكية . وكانت الأهداف المعلنة للمشروع ، هى(٥٢) :

(ا) التعرف بطريقة علمية على أسباب انهيار (أو تغيير) المجتمع .
(ب) التعرف على الأفعال التى يمكن أن تمنع هذا التغير .

بحيث تجرى بحوث المشروع فى مناطق أمريكا اللاتينية ، والشرق الأوسط ، والشرق الأدنى ، وأوربا الغربية وافريقيا ، وذلك لتدعيم المهام التى يمكن أن يقوم بها الجيش فى هذه المناطق ، أو الحيلولة دون قيامها فى مناطق أخرى . ولا شك أن ذلك يعد هدفا لا انسانيا يعتبر نتيجة مأساوية للدور الذى تقوم به العلوم السلوكية فى ارتباطها بالحكومة الفيدرالية على ما يقول روبرت نيسبت .

ولقد تصدى بعض العلمـــاء من ذوى الميول الراديكالية لهذا المشروع واعتبروه رمزا لفشل المجتمع والعلم أيضا فى علاج مشكلة الصراع الاجتماعى والضبط الاجتماعى ، كما تصدت « حركة تحرير علم الاجتماع » التى أسسها جماعة من الراديكاليين ، فأصدرت بيانا بالغ العنف ادانت فيه علم الاجتماع الأمريكى وأوضحت فيه أن هذا العلم يمر بأزمة اذ يضع نفسه فى خدمة أولئك الذين يقهرون الآخرين ويسيطرون عليهم . (٥٣)

---

(٥٢) R. Nisbet, Tradition and Revolt, op. cit., pp.

(٥٣) السيد يس ، علم الاجتماع بين الثورة والثورة المضادة ، مقال بمجلة **الكاتب** ، العدد ١٢٠ ، مارس ١٩٧١ ، ص ص ٥٠ — ٥٤ .
ولقد أدى النقد الذى وجه الى المشروع أن يصدر وزير الدفاع الأمريكى أمرا بتوقفه فى ٨ يونيو عام ١٩٦٥ وبعد بدايته بعامين .

ولقد أدى هذا التناقض الداخلى فى بناء العلم الى ان تزداد حدة الصراع بينه وبين البناء الفكرى الجديد . فبدأ يتبلور داخل بناء العلم اتجاه معارض للخط الفكرى المرتبط بمشكلة النظام . ظهر هذا الخط النقدى فى صورته المبكرة على يد تشارلز رايت ميلز الذى ساهم فى فكر اليسار الجديد والفكر النقدى فى علم الاجتماع . ومع تزايد حدة الصراع بين البناء الجديد والبناء القديم بدأت تظهر حركة تجديد ونقد فى علم الاجتماع استهدفت اعادة صياغة مفاهيم الاجتماع واعادة توجيه اهتماماته لتشمل الأهداف الانسانية العامة . وتنوعت الاتجاهات داخل حركة التصحيح هذه رغم اشتراكها فى هدف واحد . فمن العلماء من اتجه الى النظرية مباشرة ، ومنهم من اتجه الى نقد المجتمع مع اهتمام بنقد النظرية ، ومنهم من حاول صياغة بدائل نظرية جديدة رآها اكثر واقعية فى فهم وتفسير الواقع . وسوف نتعرض فى الفصول القادمة لهذه الاتجاهات النقدية تفصيلا بعد ان عرضنا هنا الاطار الفكرى والبنائى الذى ظهرت فيه .